المملوك

www.ebibliomania.com

+201065534541
+201208868826
fb.com/Books.Bibliomania/
ببليومانيا للنشر والتوزيع
fb.com/bibliomania.eg/
insta:books.bibliomania/
Books ـ ببليومانيا
fb.com/groups/Bibliomania.Books/
@BibliomaniaEg

المملوك

روایة

حاتم القاضي

ببلومانيا
للنشر والتوزيع

ببلومانيا للنشر والتوزيع

نوع العمل: رواية

اسم العمل: المملوك

اسم المؤلف: حاتم القاضي

لوحة الغلاف: محمد درويش تصميم الغلاف: محسن رفعت

تدقيق وتنقيح: محمود ربيع

رقم الإيداع: 13309 /2018

الترقيم الدولي (ISBN): 978-977-6607-49 - 1

الناشر /دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

المدير العام / جمال سليمان

تليفون /26061014 (20+)

هاتف محمول/ 1208868826 (20+) - 1065534541 (20+)

صفحة الدار على موقع فيسبوك:

https://www.facebook.com/bibliomania.eg/

الموقع الإلكتروني: www.ebibliomania.com

الطبعة الثانية 1439 هـ - 2018 م

جميع حقوق النشر الورقي والإلكتروني والمرئي والمسموع

محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ

أو التعديل إلا بإذن من الناشر.

تنويه: ما ورد في هذا الكتاب يعبر فقط عن وجهة نظر الكاتب ولا يعبر

بالضرورة عن وجهة نظر الدار

المملوك

ليست رواية ولا تاريخ

حاتم القاضي

التاريخ، ذلك الكذوب أبدًا

مقدمة

هذا المكتوب ليس إلا محاولة لتقديم وجهة نظر مشتتة عن وقائع لم أختبر أحداثها، وكل ما يلي إن هو إلا ظنونًا قد تحوي بعض الحقائق غير المنمقة، وغير المرتبة، لكن هي نفسي الأمارة بالسوء، وليس لي عليها سلطان.

إهداء

إلى روحِ أميِ الطاهرة

الابتلاء على قدر الطاقة،

وإنك لمبتلًى بدمي

في لحظة الهجوم المباغِت بدَت من الملك المظفر الْتفَاتة ونظرة كادت أن تسقط "بيبرس" من فوق فرسه، رفع الملك يده؛ فظن مرافقوه أنه سيستل سيفه، لكنه أخرج منديلًا ليمسح قطرة عرق، قالوا: إنها دمعة سقطت، انقسم الرواة حولها، منهم من قال: دمعة حزن على الزوجة المهدورة، وذهب البعض الآخر أنها دمعة سقطت على الصاحب الذي خان.

لم تمنع دموع قطز الأمير بيبرس من الضرب بقوة، ولا مرافقيه من أمراء المماليك من أن يهتفوا بحياة الملك الجديد، أن يعيشوا تحت كنفه سبعة عشر عامًا ينعمون في ملكه، تقتطع لهم الأبعديات، والمنح، والعطايا، والغنائم.

ماتت حكاية السلطان المظفر، ومن تكلم فيها ما زاد أن قال: إن بيبرس خشي غدر الملك، وذهب بعضهم إلى أنه كفر عن ذنبه بأن عاش ملكًا صالحًا، كتبوا له البطولات والروايات، وجعلوه كبيرًا للحرافيش والعُيّاق، لكن أحدًا لم يذكر النظرة التي بدت من الملك

المظفر لقاتليه، ولا ما قال لصاحبه وهو مقتول بين يديه، إلا ما كان في أوراق المملوك الأخير طومان باي بعد غزو السلطان العثماني سليم الأول لمصر، ودخول جيوشه قلعة صلاح الدين، وتعليق رأس طومان باي على باب زويلة.

المخطوطة الأصلية لتلك النظرة ومعها منديل قطز الملطخ بالدم، ورمال الصحراء، وقنينة عطر جلنار، وصحيفة مهترئة بها بضعة أسطر مشوهة بفعل الزمن، وارتعاش يد الكاتب الذي قيل إنه الملك بيبرس البندقداري نفسه، وقد تسلمها السلطان سليم الأول من العبد المهرّج ميمون الخامس خازن أسرار سلاطين المماليك، حيث كانت محفوظة في كيس من الحرير داخل صندوق خشبي مغلق بإحكام في سرداب مهجور داخل قلعة الجبل.

واقع في الحيرة بين مشاركة الجند فرحة النصر وتقسيم الغنائم، وحزنه على ابنة خاله وزوجته الملكة جلنار بنت جلال الدين الخوارزمي ملك خوارزم التي الْتقاها بعد سنوات من الضياع والفراق والرقّ، وإن كان عزاءه أنها من الشهداء، وقتها جاءته الضربات من الخلف، كل أمير استلّ سيفه وخنجره وساهم بضربة في قطعة من لحمه، عدا ضربة بيبرس وزيره وصديقة المقرب كانت في المنتصف، في صميم القلب فكانت القاضية.

مات الملك، لكن عزاءه أن بيبرس ليس كبقية الأمراء الخونة، فهو لم يستطع النظر إليه في العينين.

بدأ حقد الأمراء على قطز بعدما اتفق مع الشيخ العز بن عبد السلام شيخ الإسلام وقاضي القضاة في الديار المصرية على حتمية عتق الأمراء المماليك، ولزوم ذلك أن يسدّدوا ثمن حريتهم لبيت المال، فأعدوا عدتهم وأوغروا صدر بيبرس على صديقه ومولاه قاهر المغول والتتار وشريكه في معركة المنصورة ضد قوات الفرنجة من

الصليبيين المعتدِين؛ حتى تملّك الخوف من قلب بيبرس وتَمطَّت الريبة في قلب قطز.

لم تردعهم أحزان ملكِهم الصغير على زوجته الشهيدة؛ فأطلقوا الأرنب ليصيده المِلِيكُ الشاب، لكنه لم يكن يعرف أنه الفريسة وليس الصياد، انقضّوا عليه جميعًا، وكان بيبرس صاحب الضربة التي قضَت على أحزان الملك.

عندما شهق سيف الدين قطز محمود بن ممدود بن خوارزم شاه ملك مصر والشام قاهر المغول والتتار شهقته الأخيرة بين يدي قاتله وصديقه بيبرس، قام الأمير الغادر باحتضان جسد الملك وبكى حتى ابتلت لحية الملك المغدور، قيل: إنه لم يترك البكاء، وعاش كأشجع ملوك عصره، ومات يحمل ذنب أخيه على عاتقه.

لم يستطع الأمير بيبرس أن يرفع عينيه إلى عيني السلطان، لحظة أنِ الْتقَت عيناهما ورأى النظرة الوادعة وبسمة العتب ارتبكت خطواته، أراد أن يعود كما أتى لولا أن همس مملوكه وخادمه ميمون في أذنيه: تقدّم يا مولاي السلطان القاهر، سرح بخياله إلى الطبول تضرب في قلعة الجبل، والأنفاس تلهث باسمه، والدعاء على المنابر: اللّٰهُمَّ انصر مولانا المستعضد أمير المؤمنين، وخادمه سلطان مصر والشام القاهر بيبرس البندقداري، سليل الملوك والسلاطين.

هزةٌ من يد خادمه أعادته للصحراء، أي تقدم يا مولاي، ورأى الحيرة في وجه أمراء المماليك والتابعين: تقدم يا مولاي فإننا قاتلين أو

مقتولين الليلة، حدثته نفسه بقتل عبدِ السّوءِ هذا، لكن طبول النصر في أذنيه، عاش مولانا سلطان مصر والشام، عاش قاهر التتر والعجم، صاحب البطولات ذو الطول والسلطان، رفيق الخليفة وظل الله على الأرض.

مد يده إلى سيفه، أمهَلَ يده دقيقة، رأى السلطان ينحني على الأرنب والتابعين والخدم يظنون أن القائد بيبرس يتقدم ليذبح الأرنب لمولاه، ولكنه هوى به على سلطانه من الخلف، الملك المظفِر صديق الأمس توأمه الذي لم ينفصل عنه منذ الصبا، لكن أصبحت الارض لا تتسع لكليهما الآن، أصابته الضربة في مقتل؛ رفع سيفه ثانية ولمح الأمراء يرفعون معه فضرب ثانية، خر السلطان على الأرض فلم ينظر إليه، وأشاح بوجهه بعيدًا صوب البرج الأحمر بقلعة الجبل، سمع نداءات الحرافيش عاش السلطان، عاش قاهر المغول والتتر، عاش حامل كسوة الكعبة المشرفة، بطل المنصورة ورشيد وعين جالوت وحده لا شريك له ضرب مرة أخرى ومرات، سقط الملك والْتقَت العينان ثانية وتمتمت الشفاه بشيء؛ فاقترب ليسمع

قول السلطان في ذمه وشتمه ليرتاح ضميره، همس السلطان بكلمات ثم أسلم الروح.

لم يدر ما يفعل، انتفض جسده وانفجرت عيناه بالبكاء على رفيق العمر الذي الْتقاه صبيًا، فهو الأقدم في مماليك الملك الصالح أيوب، حاول فرض هيمنته على الصبي الجديد لكنه أبَى، وبعد ليال وأيام من العداوة تعاهدا على الأخوة عهدًا لا ينقضه إلا الدم وافترقا كلٌّ عند قائده، ثم فر بيبرس إلى الشام بعد مقتل قائده أقطاي وعادَى أيبكا لكن عهدهما باق، ثم عادا ووقفا جنبًا بجنب عند مقتل شجر الدر والسلطان المنصور وتنصيب قطز سلطانًا بعونه حتى معركة عين جالوت، كان القائد المقرّب وأول من وصل لخيمة السلطانة، وقاتلَ من قتلوها وهو الآن قاتل زوجها سلطان المسلمين، خان العهد الذي لا ينقضه إلا الدم، وقتها قرر أن يغير اسمه من القاهر إلى الظاهر.

لا تكن ليِّنًا؛ فيعصروك

بل كن صلبًا وإن كسروك

فالكسر لا يكون إلا مرّةً

ترجّل أقطاي عن صهوة جواده أمام باب القصر الأحمر بقلعة الجبل، مشَى بتؤدة فلم يدرِ بخلده وهو فارس الدين أقطاي الجمدار، حافظ سر الملك الصالح أيوب وزوجه شجر الدر، طارد الصليبيين مع المرحوم فخر الدين يوسف، وساعدَ الملكة أم خليل الأيمن في صراعها ضد الأيوبيين، والمستعضد الخليفة العباسي الذي أراد خلعها من الملك، لم يكن يتصوّر أن ترفضه شجر وتُفضّل عليه أيبك الضعيف الخبيث، هو أقطاي أمير المماليك البحرية الذي استرد لها سوريا والبحر من الأيوبيين والصليبيين، يقف الآن عبدًا ذليلًا أمام المحتال أيبك، ويتساوى مع العبد قطز.

لن يستسلم، بل سيزيد من نفوذه بين المماليك، وسيتصل بالحرافيش، وسيطلق مملوكه بيبرس على صاحبه حتى يجد الوقت الملائم لاستعادة شجر وعرشها من أيبك المحتال.

القصر اليوم هادئ ولكنه غريب، الحرّاس منتشرون في كل مكان؛ فأيبك الجبان يحذر على نفسه، يقود الحراس أقطاي إلى قاعة العرش

الخالية ويقف منتظرًا شجر الدر وعز الدين أيبك، ليس بالقاعة إلا القط الفارسي المدلّل الذي أهداه للملكة جالسًا فوق العرش، يسمع صوتًا خافتًا ويلتفت فلا يجد أحدًا، يسمع صوتًا مكتومًا كفحيح الثعبان لحظة الْتفاتِه للعرش، يشعر بشيء حاد ينغرس في صدره، السهم المسمم منغرس في صدره مباشرة إلى القلب.

يترنح أقطاي ويقع على ركبتيه، يسقط، يزحف حثيثًا نحو العرش فلا يصل إليه، وتسقط رأسه على أرضية القاعة.

بعدما أسلم الروح دخل الحراس تحت إمرة القائد قطز؛ فحملوا الجثمان وخرجوا، أمام بيت أقطاي تجمع الحرافيش ووقف بيبرس وسطهم ليرى الأحداث، لم يكن يعلم حينها أن أستاذه قد لقي ربه.

انتشر الجند يعلنون الموت لكل من خالف وحارب الملك عز الدين أيبك سرًا أو علانية، وعمال بيت المال يحصون ممتلكات أقطاي، ويحملون الصناديق والمتاع وكل ممتلكاته فوق العربات إلى قلعة الجبل.

لم يستطع بيبرس أن يبقى؛ فودع صديقه الذي قتل سيده، ولكنه لن يعلم أبدًا أن قطز هو قاتل أستاذه أقطاي، ورحل إلى سوريا.

في الليلة التاسعة بعد مقتل أقطاي وخلافًا لأوامر السلطانة شجر الدر ذهب أيبك، وللمرة الأولى بعد زواجه من الملكة شجر، لزيارة زوجه الأولى وابنه نور الدين علي.

الملك الظاهر

أنا الظاهر ركن الدين بيبرس العَلائي البُنْدُقْداري الصالحي النجمي. أنا أبو الفتوح، سلطان مصر والشام، عظيم سلاطين المماليك البحرية، أنا المملوك الأوحد الذي لم يشتره نخّاسًا ولم تخطفه عصابةً، أنا الملك المملوك الذي ذهب في صباه من القرم إلى أرض الشام؛ ليبيع نفسه شريطة أن يكون عبدًا في جوقة الملك الصالح أيوب أول من أسماني ركن الدين، وجعلني من المقربين، وأوصى بي أستاذي أقطاي الذي علمني فنون السلاح والقتال؛ فرددتُ الجميل بأن حفظتُ سيرتهما، واعتَنَت بي السيدة والملكة المستعصمة أم أمير المؤمنين الملك المنصور خليل، فأمرتُ كُتّابِي وشعرائِي بتمجيدها في كتب سيرتي لتكون أميرة بنت ملك، يقولون أني قاتل، فكيف أقتل صديقي الذي استقبلتَه وكنّا كفرسَي رهان في سبيل الله.

أنا قاهر لويس التاسع، وأنا من قضيتُ على فرقة الحشاشين، ومن قهرتُ فلول التتار والمغول حتى تخوم القرم، وأنا قائد معركة الأبلستين القاضية على ما تبقّى من المغول.

أسموني القاهر فأبَيتُ أن أكَنّى بأسماء من سبقوني؛ فكنت أنا الظاهر بلا ند، ولا نظير فلا ظاهر قبلي، وليس هناك ملك ظاهر بعدي.

أنا باني مسجدي الكبير، وعندما أردتُ أن أسميه مسجد الملك المظفر قال لي الأمراء والشيوخ إني قد أفتح بابًا للفتنة فهو رفيق دربي، وإن قالوا إنني قاتله.

أنا رمز العدل في أرض الخلافة، وأنا رمز الهيبة في عيون أعداء الأمة، بطلُ عين جالوت وأول من أنقذ السلطانة جلنار من أيادي التتر، لولا إرادة الله.

أنا ركن الدين وعماده بعد مولانا نجم الدين أيوب، اخترتُ طريقي ولم يقهرني عليه أحد، ولم يسبقني أحد، ركن الدين بيبرس الذي كان حرًا بإرادته، وعبدًا باختياره، عاد حرًا بأضعاف ما دفع أمراء المماليك لمّا أفتى العز ابن عبد السلام أننا عبيد ولا نصلح حكامًا إلا بعد الحرية، عتقتُ نفسي بما لم يعتق بمثله الأمراء.

أنا بيبرس ركن الدين الملك الظاهر، خرجت من أبواب المحروسة قائدًا لجناح جيش ملكنا المظفر محمود قطز، وعدتُ سلطانًا وملكًا

للمسلمين بمصر والشام وظِلّ الخليفة العباسي في العلن، وعدوّه هو وأمراء أيبك والرافضة فيما تحت الستر، خرجتُ والرايات تخفق والأبواق والطبول تضرب نصرة لغيري، وعدت والرايات خفّاقة باسمي، وصعدت قلعة الجبل ملكًا مؤزرًا إلى أن ألقى ربي.

لا تَتْرُكني فريسةَ الضباع

منكفأةً في ركن الحجرة المظلمة القذرة تختبئ من مماليك أيبك وقد هجرها بيبرس ربيب الملك الصالح وتلميذ فخر الدين أقطاي، بيبرس الذي فر إلى الشام لما علم بمقتل سيده وخاف من بطش أيبك، الأمير الذي كان مملوكًا صبيًا عندما رافقها منذ عشرة سنوات في عسرتها عندما سُجن مولاها الصالح؛ فكان نعم الخادم الأمين، وكان شاهدًا على عقد زواجها من الملك الصالح نجم الدين أيوب بعد فكّ أسره وإعتاقها، وبعدما أنجبت وحيدها خليل الذي أسمته الملك المنصور.

ابتسمت وهي تذكر كيف فوّضها الملك الصالح في حكم البلاد أثناء سفره لتأديب المماليك بالشام، وكيف كان يُثنِي على حنكتها، وكيف قضَت بالخدعة على الصليبيين الفرنج بمساعدة أقطاي بعد موت الصالح، سرحت بخيالها في المستقبل المظلم، وتمنّت أن يعود الصالح؛ حتى لاتتورط في دم توران شاه ابنه الطامع في حكم مصر، ولا ترى هذا المخادع أيبَك الذي ركع تحت قدميها وترك لها كل شيء حتى

تمكن وعاد لزوجته الأولى أم علي، ثم عاد وقهرها بطلبه الزواج من ابنة صاحب الموصل.

كل ذلك بفعل الشيطان قطز الذي تربى في كنف الصالح وأصبح من رجال أيبك، لطالما كرهته ورأته نذير شؤم لمُلكِ بني أيوب، ومع ذلك ساعدته في الزواج من جَارِيتِها جِلنار، لكنه وجه شؤم فكان يوسوس في أذن عز الدين أن الحكم للرجال، وينقل رسائله لأم المنصور علي وابنها، والآن ينادَى به سلطانًا للبلاد. فأين هذا القطز من الفارس بيبرس، لكن الحرافيش يحبون قطز، وشجر تكرهه.

شجر الدر الجارية التي لا تعرف لها أصلًا إلا جمالها ودلالها، وبيبرس الذي أحبته كابنها بعد موت خليل هو الذي قال للعامة وللجميع أنها ابنة أحد ملوك التركمان، وإن أباها الملك أهداها رداءً مزينًا بالدر فكانت كالشجرة وأسموها شجر الدر.

أين أنت أيها الكلب الشرس من ذلك الأشقر ذي العيون الزرقاء والخضراء الذي أجبر المماليك على رفعها فوق كرسي العرش، وسكَّ العملات باسمها، ما أجمل المكتوب! المستعصمة الصالحية ملكة

المسلمين، والدة خليل أمير المؤمنين، وأين منه هذا الآخر صاحب قطز المدعو العز بن عبد السلام الذي أقام الدنيا في مصر والشام ودار الخليفة وأبناء أيوب مع قطزه، اللذان جعلا المستعصم يقول: لو لم يكن عندكم رجالًا نرسل لكم من يحكم، ولا يحكمكم النساء.

ثمانون يومًا من الجلال والعلو بعد أن كنتُ مِلكَ يمين فأصبحتُ ملكة المسلمين، هل نسوا خديعتي وأسر لويس التاسع؟ هل نسيتُم أعمالي الجليلة ورعايتي للفقراء والضعفاء؟ جزائي الآن أن أكون الحبيسة بأمرها، الهاربة مثل الفأر الذي يضيق عليه خناق القط.

لم تقف شجر الدر التي تحوّلت من إحدى الإماء إلى ملكة للمسلمين مكتوفة الأيدي، بل خرجت من الغرفة التي بالقصر الأحمر في قلعة الجبل، تشعر بالبرد فيدفئها الكبرياء، وترتجف من الخوف فتطمئن أنها الآن وحيدة وفي أمان من عيون أم علي وقطز، تهبّ نسمة هواء من الجبل ويخرج عليها أتباع أيبك وقطز وأم علي من الناحية الأخرى، يضربونها بالقباقيب فتسقط، وتقوم لتفر،

يضربون ثانية ويمزقون الملابس، يكشفون عورتها، ويخمشونها بالأظافر، ويقطعون بأسنانهن، ثم يلقون بها من فوق أسوار القلعة إلى الصحراء، انتفخت وتعفنت وبعد ثلاث أتى قطز مكممًا وجهه من نتن الرائحة ومعه رجاله، دفنوها في مكان غير معلوم، وأعلن ابن أيبك ملكًا على مصر، قامت أم علي زوجة أيبك الأولى وأم الملك المنصور نور الدين علي بعجن الثريد في اللبن والعسل والجوز وتوزيعه على الفقراء، وعموم الناس بالمحروسة فرحة بابنها السلطان الجديد، لتصبح الملكة أم علي.

حَبّ الرمان

كانت جلنار حبُّ الرمان الفتاة التي أسِرَت قلب محمود قطز ابن عمتها تجلس في خيمتها، تدعو لنصرة ملكها وقواته، فانفتحت الأبواب وانكشفت الستر عن أجلاف غلاظ انهالوا بطعناتهم على جسدها وكل خدمِها، فما أحسّت بألم إلا لوعة الفراق، كان الملك المظفر يجول بسيفه في أجساد التتر والمغول، وعندما سمع جلبة خلفة ورأى انكسار قواته وتراجعهم وتقدم العدو أسرع يساند المنكسرين، رأى عسكر المغول يخرجون من خيمة الملكة والدماء فوق النصال، أسرع لنجدتها فوجد جسدها الرقيق مسجًى على الأرض وأنفاسها ضعيفة تكاد تحرك جسدها الهزيل، ارتمى جوارها وحملها قرب صدره وصرخ، وا زوجاه، وا حبيباه؛ فقالت كلمتها الخالدة: مهِ، بل وا إسلاماه! ثم أسلمت الروح لبارئها.

تركها وخرج مشتعلًا بنار النقمة، وصرخ في جنوده: وا إسلاماه.

قيل: إنه كَسرَ سبعة أسيف حتى انتهت المعركة، وبعضهم قال: كَسرَ عشرة سيوف، وقالوا: إن القتال كان عنيفًا، وإنه كان يصارع العدو والدموع في عينيه.

دُفنَت جلنار حبّ الرمان بنت جلال الدين شاه ملك خوارزم، وزوجة سيف الدين قطز ملك مصر والشام يوم موقعة عين جالوت في نفس موقع المعركة.

لم تُغسّل جهاد، ولم تُكفّن بل شهيدة من الشهداء لم تبلغ الثلاثين.

جلنار حبّ الرمان كما أسماها التتار، أو جهاد كما أسماها أبوها الملك المهزوم.

كانت الجارية آجنس تحاول مضايقة جلنار التي جذبت انتباه المملوك بيبرس ودأبَ على محاولة التقرب إليها، واسترضاء السيدة جيهان مسئولة الحَرَمْلَك؛ لينال موافقة الملكة شجر الدر على زواجه من جلنار، لكن السيدة جيهان القادمة من أصفهان كانت تعلم ما بين قطز وجلنار، ورغم اعتراضها على الاثنين مفضّلة أن تجعل جلنار من الجواري المقربة للأمير أيبك أو القائد أقطاي، فذلك أكثر ربحًا لها ولجلنار، إلا أن مقتل أقطاي وزواج أيبك من شجر الدر جعلها تحاول مع الأشرف قلاوون الذي كان قلبه معلقًا بجارية أرمينية فلم يلتفت لجمال جلنار، ومع صعود نجم قطز وإرضاءً لمولاها السلطان عز الدين أيبك ساعدَت جلنار على الوصول لمبتغاها؛ لتصبح زوجة لابن عمتها الأمير السابق والمملوك محمود قطز.

مع مقتل شجر الدر واقتراب التتر من حدود السلطنة قام قطز وأعوانه من المماليك البحرية، بينهم بيبرس البندقداري، بحبس

الملك المنصور نور الدين علي وإعلان قطز سلطانًا على البلاد، لم تتوانَى جلنار في رد الجميل لجيهان، جعلَتْها رئيسة ديوان الحرملك، مع علمها أنها ليست على مذهب السنة، وأنها مازالت على مذهبها القديم منذ أتى أجدادها مع حكم الفاطميين، وإن تحولوا ظاهريًا في عهد السلطان صلاح الدين؛ ليستمروا بخدمة أمراء الدولة الأيوبية.

الآن جيهان في موقف لا تُحسَد عليه، بيبرس لا ينسى ثأره، وإن كان قد رضي بضياع جلنار من بين يديه، فهو لن يرضى بضياع ثأره من جيهان وتفضيلها قطز، من المؤكد سيتم طردها من الحرملك تحت أي مسمىً، هذا إن لم تُلقَ بالسجن.

أما آجنس الرومية عاشقة بيبرس فقد وُجدَت مقتولة في غرفة الحمام يوم عودة الجيش المنتصر في عين جالوت.

وأما الملك المنصور نور الدين علي ابن عز الدين أيبك، فإنه بعد خروجه من السجن ونفيه خارج أراضي الخلافة ذهب إلى إحدى

المدن التابعة لإمبراطورية بيزنطة وفارق الإسلام، تنصّر وعاش هناك حتى مات.

بائع الأمراء

خرج مسرعًا من الكلاسة التي بطرف المسجد المغلقة أبوابه وهو يرتجف من الصقيع، يسقط بجسده في ماء البِركَة الأكثر برودة؛ فيشعر بتجمد أطرافه وألم ما بين فخذيه، هذا الألم الذي يستمر ليالٍ بعد كل احتلام ترتعش به مفاصله فيفيق من نومه قبل الفجر، حظّه العسر قاده الليلة للاحتلام الثاني، والذي لا يدري له سببًا إلا أنه غضب ربنا لذنب أجرمه، لا يجد مناصًا لحصول المغفرة إلا الرضا بعقاب الله، احتلم ثالثًا فألقى نفسه في الماء ثالثًا، يظن أنه هالكٌ الليلة، ولولا أنه طالب علم لصدق ما يقول الدهماء أن الصقيع من وادٍ بجهنم لتعذيب الشيطان المخلوق من النار، هل يمكن أن يعذب الله النار بالنار؟ لكن البرودة هي العذاب الناجع لهذا الخبيث صاحب القرون الذي زاره الليلة ثلاثًا.

لا يفتأ العز بن عبد السلام أن يحكي ما وقع له في تلك الليلة لتلاميذه، وكيف أُغشي عليه فى المرة الثالثة، وأن عناية الله فقط التي أنقذته من الموت غرقًا حيث أُغشي عليه بعد خروجه من الماء

وهو على حافة البركة، لو كان بالماء لغرق وحيدًا لا يدري به أحدًا، ولم يكن ليسجن في دمشق بعدما رفض موالاة الصالح إسماعيل للصليبيين في حربه مع نجم الدين أيوب، الذي حرره من سجن إسماعيل ودعاه إلى مصر، فأصبح قاضيًا للقضاة.

شيخ الإسلام أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن حسن السُلَمي الشافعي، قاضي قضاة المحروسة، ناداه الناس في عهد قطز ببائع الأمراء والملوك، تلك الفِعلَة التي هيّجت الأمراء على ملكهم المظفر بعد فتوى ابن عبد السلام بأنهم جميعًا عبيد يجب عتقهم قبل أن يقودوا الجيوش، وأن فداءَهم يكون لبيت المال؛ حيث مات سيدهم وجالبهم الصالح نجم الدين أيوب، وبعد هلاك توران شاه ابنه على يد شجر الدر، فكلهم بما فيهم السلطان قطز عبيدًا للعامة ولا يقودون، إنما يُقادون حتى يتحرّروا من نير العبودية.

تلك الفتوى التي دفع فيها بيبرس الأمير المقرب للسلطان ضعفَي ضِعفَ أي أمير؛ فساوَى السلطان فيما دفع، وأثار قول العامة

والأمراء أنه يطمع في السلطنة، حتى أن قطز قد احمرّ وجهه من الغضب لما علم.

عزل العز نفسه من دار القضاء بعد فتواه تلك تحرجًا من السلطان، لكن قطز أبى إلا أن ينفذ فتواه وعاونه بيبرس بكل قواه.

أدرك العز أن الأمر قد استتبّ لبيبرس عندما وجد العامة يهلّلون باسم السلطان القاهر، ووجد الإمّعة أبو العينين عريف الكتاب الذي طرده من مجلسه كثيرًا يهلّل باسم السلطان بيبرس، ويقول مرة القاهر ومرة الظاهر، علم وقتها أن وقته على زوال وأن بيبرس يبقيه خشية العامة، ليس حبًا فيه ولا كرامة لعلمه.

لم تطُل الأيام فأتت بما انتظره العزّ؛ حيث دعاه السلطان بيبرس واستفهم منه عن عدم مبايعته إلى لآن، ثم أخبره أنه سيصلي الجمعة القادمة في مسجد السيدة نفيسة ويريد العز ليخطب ويصلي بهم، قال العز هروبًا من المأزق: إنك يا أمير أحق بها، ولكني يا ركن الدين أعلم أنك ما زلت مملوكًا للبندقداري، فاحمرّ وجه بيبرس من الغضب المكظوم وأمر بصكّ العتق الذي أعطاه إياه الملك الصالح بعدما ورثه من البندقداري، والصكّ الثاني بعتق عموم أهل مصر له مقابل ما دفع؛ فأُسقطَ في يد ابن عبد السلام، وبايعه على السلطنة تحت ظل الخليفة العباسي ونائبًا له، لكن بيبرس لم يقنع بما قال العز وفعَل، وأرادها بيعة أمام الجميع فأكد لابن عبد السلام أنه سيكون حاضرًا

في الصف الأول لصلاة الجمعة؛ حتى يسمع الخطبة العصماء، والدعوات من ابن عبد السلام، وتلاوته للقرآن المبارك، وتسبيحه المعطر بذكر الله.

لم ينسَ بيبرس للعز ما حدث، ولكنه لم يقدِم يومًا على إظهار عدم محبته وإلا افترسته العامة والمشايخ بل وبعض الجنود، فأسرّها ثم نسيَها.

أحب بيبرس الشيخ، قاضي القضاة، وصاحب الفتاوي القوية؛ فكان أول المشيعين لجنازته وقال: لا إلٰه إلا الله ما اتفقت وفاة الشيخ إلا في دولتي! وحضر دفنه عند سفح المقطم، لكنه لم يزر قبره بعدها، ولا تحرك لسانه بذكر ابن عبد السلام في مجالسه.

جہاد

أنا جهاد، وأبي السلطان جلال الدنيا والدين أبو المظفر مِنكُبُرتِي بن السلطان علاء الدين محمد الخوارزمي، ابن عمتي وزوجي هو الملك المظفر محمود بن ممدود وكنيته المظفر قطز، أما أنا فأناديه بابن العمة، رفيق عمري، وتوأم روحي.

وُلدتُ بعده بقليل، عشتُ طفولتي في قصر أبي تحت بصر وعناية محمود بعدما انتقل مع عمتي للعيش معنا بعد استشهاد والده، وعندما دخلَت المغول خوارزم فرَرْنا إلى الهند، وطِفْنا البلاد والمدن فارين حتى أتى اليوم المشئوم، قتل التتار أبي وأمي وكل أهلنا ثم باعونا في سوق العبيد بالشام، عِشنا صبانا معًا، أسموه قطز وأنا جِلنار، نسينا محمود وجهاد وعشنا معًا في ذل العبودية، لكن قلبينا كانا طليقين معًا، إلى أن جاء اليوم الذي باعوني فيه لقصر الملك الصالح أيوب وزوجه شجر الدر، عشتُ في قصر الملك الذي كان قبرًا دون محمود، هو آخر من تبقّى من أهلي وأرضي وقلبي، كنت أفيق ليلًا على صوته يناديني؛ فأبكي حتى أغفو.

ليلة كنا في مجلس شجر الدر نجهز لحفل زواجها من القائد أيبك ودخل مملوك برسالة من سيده هتَف قلبي هو، لكن كيف لي أن أعرف؟ قد أصبح شابًا يافعًا وفارسًا مغوارًا، لم أنَم حتى موعد العرس، وجدته يقترب مني محدثًا نفسه قائلًا: جهاد! ابتسم قلبي وقلتُ: من أنت أيها الفارس الكريم، قال: أنا محمود يا زهرة الرّمان، لا أذكر شيئًا بعد ذلك اليوم، ولا أعلم كم مرّ من عمري، من مات ومن حيا، كأنّي نمتُ في الجنة، وصحوتُ على صوت خيل المغول حين اقتحموا خيمتي وأنا جالسة أدعو بالنصر لزوجي، فقط أردتُ ساعتها أن أعلم أنه حي، ولمّا علمت قلت نفسي فداؤه.

رشقوا حرابهم في صدر وقلب حبّ الرمان، سقطتُ بين يديه فناداني، قلت لبيك زوجي، قال: وا زوجاه وا حبيباه، قلت له: مِه، بل وا إسلاماه!

رأيتُ ملائكة السماء تضع التاج على رأسي، ورأيت وجه حبيبي يشع نورًا؛ فعلمتُ أن اللقاء قريب، ابتسمتُ بين يديه، وعرجتُ بعربتي الموشاة ستائرها بالذهب إلى قصري في السماء.

أم خليل وأم عليِ

خرجَت أم خليل بعد آذان الفجر تجرّ أولادها الأربعة والرضيع على كتفها، لا تريد لشقَاء الأمس أن يتكرر بعد أن تكاسلت عن الخروج؛ إرضاءً لنزوة زوجها التعس أحمد سعيد مبيّض النحاس في الجمالية، اليوم هو الأخير في الاحتفالات وتريد الفوز بالنصيب الأكبر بين أقرانها بالحارة، أمرَت الأبناء أن يذهب كل منهم بصحن كبير إلى أحد أبواب المحروسة، وليقف في طابور توزيع الحلوى الجديدة للسلطانة أم السلطان المنصور نور الدين علي، ما أطيبه الثريد الغارق في الزبد باللبن والعسل والجوز، لم يذوقوا الكثير؛ فقد انتهى التوزيع ولم تحصل إلا على صحنين فقط، استعدَّت جيدًا اليوم، فقضَت ليلتها منزوية في ركن الدار جوار العيال، واشترَت بكل ما تملك أصحُن من الفخار، تتسع لكل ما لذ وطاب.

ذهبَت إلى البوابة الكبيرة فوجدت الزحام شديد والناس تتقاتل، صدّرَت رضيعها وبطنها الممتلئ، انحشرت بين الرجال تصرخ في قلة حيلة وعجز باديين، تستعطف المملوك مسئول التوزيع، ولم تنسَ أن تُسقط الغطاء عن شعرها الأسود المدهون بزيت الزيتون، وأن

تشعَث جدائلها حتى يرى بعضًا مما يجعله يزيد في العطف، وبالفعل وصلت لغايتها وأجزل لها المملوك العطاء، لكن هذا الخبيث فاجأها بالسؤال عن اسمها فأُسقطَ في يدها، قالت: أم... ثم صمتت، استحثها بقوله: أم من؟

ماذا تقول، أم خليل؟ نعم هي أم خليل الذي أنجبته في عهد الملك الصالح أيوب وزوجه الملكة شجر، أسمته خليلًا تيمنًا باسم ابنهما المنصور خليل، لا؛ هي لن تقولها، فقد يقلبُ القِدر من بين يديها، ماذا تفعل إذًا؟ تصنّعت الحياء، لكن المملوك بدا عليه الضيق، خافت أن تعاود الكرة فلا يعطيها فأسرعَت وقالت في عفوية: اسمي أم علي، نعم أنا أم علي، انفرجَت أسارير المملوك وقال: أطال الله عز مولانا المنصور نور الدين علي، وعز مولاتنا السلطانة المستعصمة أم سلطان مصر والشام ونائب مولانا الخليفة أمير المؤمنين.

أعطاها وزاد في العسل والجوز؛ حتى خافت ألا تستطيع حمل الصحن الكبير، لملمَت ضفائرها كالحوايا فوق رأسها، ووضعت الصحن تمسكه بيد وقدمَي الرضيع بالأخرى، أسرعت لبيتها عسى أن تعود

لتحصل على آخر باسم الرضيع محمود الذي بدأ يمص إصبعه الغارق في صحن العسل.

كان أحمد سعيد مبيض النحاس بحارة بيت القاضي بالجمالية يمصّ عرق المنزول وهو جالس بجوار الفرن؛ ليشعر بالدفء يسري في أوصاله، دعا ربه ألا تأتي أم خليل فقد أنهكه التعب بين شقاء العمل وبين جريه خلف العبيد للحصول على بعضًا من حلاوة السلطان الصغير الذي قتَلَت جواري أمه السلطانة شجر، وألقوا بها من فوق أسوار قلعة الجبل وبقيت بالصحراء ليالٍ حتى وجدت من يواريها التراب.

جلس يحمد ربه على تأخر المرأة اللحوحة بعينها والمعذِّبة بما توحي كلماتها وهو لم يعد كما كان، رضي أبو خليل بحكم الزمان وأصبح من مرتادي المملوك شيراز بائع المنزول[1*] وجالبه من بلاد الهند تحت وصاية سيده فخر الدين أزنار، يدفع أحمد الكثير في المنزول

(1*) المنزول نوع من المخدر البلدي، ومن أشهر ما قيل فيه شعر بديع خيري الذي لحنه وغناه سيد درويش في رواية "كلُّه من دا" 1918م.

بقى برضه أصول محاسيبك دول يفضلُوا على طول من غير منزول
معناها بلا أفية ولامؤاخذة اتْحِفنا بلحسة تكون لذة

والدهانات حتى لا يطأطئ رأسه أمام حليمة التي كانت تشتهر بأم خليل، وقررت الليلة فقط أن تكون أم علي، فهي تبيع أمها من أجل لحسة عسل.

دخلت حليمة تتمطّى بحملها وما في بطنها، تأهّب واقترب من العفريتة التي تكحل عينيها بهباب الفرن وتظن أنها تتزين، أخبرته أنها متعبة الليلة وتريد أن تصحو مبكرًا؛ لتذهب إلى حيث يوزعون حلوى السلطانة أم المنصور علي، اقترب أكثر وداخله تعب ووهن، وابتعدت هي في نفور فازداد وهنه، وانعدمت رغبته الضعيفة، لكنه ازداد قربًا؛ فنهرته وانزوت بعيدًا قائلة: ألا يكفيك ما ضيعته بالأمس من نصيبنا في الحلوى الفريدة.

أخبرها كاذبًا وهو يتمنى في نفسه ألا تأتي، إن لم تأتِ الآن سيتزوج عليها، ضحكت بسخرية وهي تقول: لن آتي، ولو تزوجت نصف

اسم النبي أحسن حافضِينك
سيد العارفين ينصر دينك
ياحَدقة ناكلها بدقة ناكلها ببصلة
أهي لُقمه وبس تحشي المصَارين
ربنا مايخليه لنا فى إيديه المنزول
اللى يفرفش أيوه الله آمين.

نساء المحروسة، أعطاها ظهره مغتاظًا من ضياع المنزول، ومن عدم فهمه لها تغويه وتأبَى، فرحًا ببعدها وبما ستحضره من حلوى السلطان الجديد، قبل أن يغفو سمعها تقول سأسمي ما في بطني بيبرس.

وقف سعدون المملوك يصدر الأوامر للعبيد والخدم بإعطاء الحلوى للمجتمعين أمام البوابة يهلّلون باسم السلطان الصغير نور الدين علي، وأمه المستعصمة الراضية بقضاء الله، والمنتصرة لروح زوجها المغدور وهي المرأة البسيطة التي لم تحلم بالزواج من مملوك مميز مثل أيبك، فتري نفسها فجأة أم ووصية على السلطان الصغير.

المملوك سعدون الداهية يوزع الحلوى بميزان وقسطاس، للرجل نصف كيل، والمرأة كذلك إن كانت ممن لا يرجون نكاحًا، أما من بها لمحة من جمال فلها كيل كامل، وإن رأي فيها ما يشجع زادها كيلين بل ثلاثًا، رأى بعينيه المرأة اللحيمة، وهنّ عنده أصل الغواية، لمح تشجيعًا على القرب بنصف شفة مبتسمة في دلال وأيدٍ راجية متوسلة للحلوى، واجبه أن يغيث تلك الملهوفة اليوم؛ عسى أن تغيثه من لهف الليلة.

رأى بطنها البارز بطفل قادم لكن ذلك لا يمنعه من الإشارة إليها، ولا يوقفه عن مسّ يديها طمعًا في المزيد، وقد أمر العبيد أن يزيدوا في الكيل حتى استغاثت بغنجٍ من ثقل الحمل.

داعب رضيعها فبكى، هدهدته حتى يسكت، سألها عن اسمها فقالت: أم علي، دعا للملِكِ المنصور وهو يعلم أنها كاذبة، ليست أم علي بل قد تكون أم خليل، ولكن من يدري ومن يهتم؟ ألا لعنة الله على خليل وعلي وأميهما، تبتعد حليمة في بطءٍ وتهتز تحت ثقل الحمل واعدة بالعودة لحمل آخر باسم الرضيع، وهو يرنو إليها ممنيًا نفسه بالمزيد.

بعد أن رحلت أم خليل أمر المملوك العبيد بإيقاف التوزيع لصلاة الظهر على أمل أن تعود أم علي قبل أن تنفَذَ الحلوى فتذهب لمملوك غيره.

أبو الظواهر

وقف الشيخ أبو العينين بين جموع المستقبلين المنتظرين عودة القائد المظفر حماه الله ورعاه، جاءت الأخبار أنه -أعزه الله- قهر التتار وتبعهم حتى أخرجَهم من كل أرض الشام، وقف أبو العينين بين المنتظرين وفي قلبه قلق أصابه هو وكل أهل المحروسة منذ جاءهم من يقول: إن الملك المظفر والسلطانة جِلنار قد استشهدا بالمعركة.

هذه هي الليلة الثالثة التي يخرج فيها المستقبلون، يجلس الشيخ أبو العينين يقرأ القرآن ويدعو للملِك، لكن هذه الليلة اختلط الحابِل بالنابِل؛ فلا قرآن ولا دعاء ولا كلام إلا في موت الملك.

وقفوا تحت أبواب القلعة منتظرين الطبول تعلن وصول جيش الملك والشمس تُحمَى فوق الرؤوس، كل يحمي نفسه من الشمس والتدافع، كلهم في انتظار وصول الملك وإلقاء القطع الفضّية والذهبية من غنائم الانتصار ويمتّعوا عيونهم بكنوز وسبايا الجيش التتري

اللائي قيل إنهن من أجمل نساء الأرض، الشيخ أبو العينين يعشق حوريات الدنيا فلا يضمن الآخرة.

اليوم شديد الحرارة، أبو العينين يقف محزونًا حيث لا قرآن ولا دعاء؛ فلا فطير ولا فاكهة ولا دراهم، يخرج الحراس يهلّلون فوق أبراج القلعة، وصل الجيش المنتصر وأعز الله السلطان، أعز الله السلطان، هتف الناس الله أكبر، الله أكبر، جرى منهم مَن استطاع نحو مشارف الصحراء؛ عسى أن ينال جزءًا من المغانم والعطايا.

تجهّز أبو العينين ليقول أدعيته للملك المظفر فوصلت إلى آذانه هتافات عاش الملك القاهر حماه الله، الملك القاهر؟ هل غير قُطز اسمه لهذا الاسم الشؤم بدلًا من المظفر؟ أم صحّت شائعات الأعداء عن مقتل السلطان؟ حتى وإن قُتل، فهل اختار الأمراء ملكًا جديدًا؟ هل اختاروه قبل أن يصلوا الديار؟ من يكون هذا القاهر؟ من يكرهه من الحاشية ليوسوِس له بالاسم الذي هلك به الخليفة المعتضد وصاحب الموصل؟

دقّت الطبول وتعالى صوت الناس بعد أن تأكد الخبر، عاش الملك القاهر عاش الملك القاهر، فصاح أبو العينين عاش مولانا الظاهر على أعدائه، عاش مولانا الظاهر بيبرس، أعجب بيبرس بالاسم كثيرًا، وأصبح الشيخ أبو العينين المرافق الدائم للسلطان في كل حروبه للدفاع عن الإسلام وشيخ مشايخ الطريقة الظاهرية، اقتطع له راتبًا من بيت المال جعل حفيده لابنته يقيم له ضريحًا، هو العالم صاحب الكرامات، حبيب الرحمن، الماشي فوق الماء، مولانا العارف بالله أبو العينين الظاهري شيخ الطريقة الظاهرية.

وقفت أم خليل، أم علي، أو أم الصغير محمود التي هي الآن أم بيبرس بعيدًا عن الشيخ أبو العينين الذي يقرأ القرآن بلسانه بينما تتفرس عيونه في أجساد النساء، لطالما عانت من يده العبثة في زحام الموالد، واندساسه بين أجساد النساء في أي زار.

وقف الصغير محمود متشبثًا بيدها، والرضيع بيبرس على كتفي أخته جِلنار انتظارًا لمقدم الملك المظفر، بينما أحمد سعيد مبيض النحاس

جالسًا بالبيت بعد أن هدّه المنزول، جلسَت معه الابنة الكبرى شجر تداويه، وذهب خليل مع عليّ أخيه الأصغر إلى الدكان الجديد الذي حوّلوه من مبيض نحاس إلى خان لبيع البخور.

عندما ضرب النفير ودقت الطبول تعالَى صوت أم محمود وجهاد يحيا الملك العظيم قطز، يحيا سلطان المسلمين، تحيا السلطانة جهاد، واندفعَت في الهتاف حتى لاحظت أنها تدور في فلك غير أفلاكهم، توقفت دقيقة وعدَلت غطاء رأسها، استمعَت جيدًا، ثم رفعت الرضيع بيبرس، اقتربت من الشيخ أبو العينين وهتفت معه عاش سلطان المسلمين، عاش الملك القاهر بيبرس، عاش الملك الظاهر ركن الدين، عاش السلطان، عاش الملك، عاش بيبرس، عاش القاهر الظاهر ركن الدين علم الدين وعماده، عاش قاهر المغول والتتار، عاش الأسد الهصور الظاهر بيبرس.

انطلقت تشدو حتى انقطعت أنفاسها، امتلأت حرمَلَتْها بالقطع الذهبية والفضية، كشفت عن ساقيها ورقصت، وسال لعاب الشيخ أبو العينين.

عند موت الملك الظاهر بيبرس كانت أم محمود تملك عشرة جواري لخدمتها، غير عبيد وجواري الأبناء والبنات، والبيوت الفاخرة، والحوانيت، وكانت هي أم خليل نائب رئيس الطريقة الظاهرية ولا تقل شيئًا عن أم المنصور خليل زوجة الملك الصالح شجر الدر أول ملكة مسلمة لمصر، الحقيقة أنها لن تموت ضربًا بالقباقيب، بل سيقيم لها أحفادها ضريح العارفة بالله أم الصالحين، ويدفن أحمد سعيد في مدافن الصدقة في بلبيس، دون أن يدري أحد أنه من عائلة أم الصالحين التي تملك صكًا بشرف نسبها ممهورًا بخاتم مولانا صاحب الخطوة، ومغيث الملهوف، أبو العينين الظاهري.

أبوك السقّا مات

كان عم منصور السقّا يمر على كل بيوت الحارة ويعلم أسرار أهلها، كان يرى المعلم يعقوب صانع السكاكين شخصًا طيبًا، لا يعلم شيئًا عما يحدث بالحارة إلا أنه يجمع الفُتات من عمله؛ فيعطيه لزوجته التي تعمل دلّالة، تمر على البيوت وتبيع الأغراض من خرز وأقمشة وأمشاط وفلايات وغيره فتساعد زوجها قليل الحيلة.

يوم مقتل الملكة شجر الدر كانت تجلس حزينة من قلّة ما باعت، ولم تستطع أن تشري إلا ثلاثة أرغفة ليعقوب وبناته، فمرت بها أم خليل زوجة مبيض النحاس، أخبرتها أن هناك بعض العبيد التابعين للسلطانة أم علي المنصور نور الدين يدفعون عشر دنانير لكل امرأة نظير ما سيعلمونه عصرًا، وأن كل امرأة تحضر أخرى لها دينارين زيادة.

الْتحفَتْ أم مينا زوجة يعقوب ملاءَتها وخرجت تهرول خلف أم خليل، تجمّعَت نساء الحارة وبعض الجواري صعودًا خلف ميمون

العبد إلى قلعة الجبل، وهناك فتح الحراس الباب وأصعدوهم للبرج الأحمر.

غاب أحد المماليك عن ناظريهم برهة، ثم عاد وأخبرهم بالمطلوب، تأديب القاتلة شجر الدر، مالت أم يعقوب على أم خليل تسألها عما يعنيه المملوك بالتأديب؛ فأشارت إلى قبقابها، لحظات بعدها واختفى الحراس عدا واحدًا، دخل غرفة بعيدة ثم خرج سريعًا، أشار إليهن واختفى في أحد الدهاليز الكثيرة بالقلعة.

بعد برهة خرجت شجر الدر حافية مذعورة تتخفّى جوار الأسوار، خلعت أم خليل نعلها وأشارت به فاتجهت كل العيون صوب الملكة أم المرحوم المنصور خليل، وانطلقن جميعًا تجاهها ورمينها بالنعال وسحلنها وخمشنها بالأظافر، وأعملن فيها العض بالأنياب حتى لم يُعرف لها ملامح، استمر الحال على هذا حتى انقضى ثلث الليل الأول، وبإشارة من أم خليل رفعنها، وجدت أم مينا رأس شجر منفلق يظهر منه النافوخ ويتساقط منها الدم، أغمضت عينيها، وفي رمية واحدة أسقطنها إلى الصحراء خلف أسوار القلعة.

أخذت كل منهن الدنانير العشرة منقوصًا منها دينارين لأم خليل كما الاتفاق، وثلاثة دنانير نصيب المماليك والعبيد، نظير حماية الطريق وبعض الماء لغسل الأيادي والوجوه من دم الملكة المستعصمة، أم مولانا المنصور خليل وزوج الملك الصالح نجم الدين أيوب، والملك عز الدين أيبك الجشنكير التركماني الصالحي النجمي.

مازال عم منصور السقا يدور على البيوت بانحناءة ظهره وتيبّس وجهه، يملأ القِربَ من ماء النيل ويفرغها في الأزيار في بيوت العامة والخاصة، كل الأبواب والأسرار مفتحة له، يعلم الأخبار من الجواري والنساء في حواري الجمالية وقصور الأمراء، يدور بين أصحاب المحال في الخان وبين البيوت، لكنه للحق لم يكن يومًا كاذبًا في خبر، ولم يكن يقول إلا ما يسمع، ثم يقول في ختام كلامه اللّٰهُمَّ عافنا، ولا تجعلنا فضاحين للأسرار، كاشفين للستر.

كان السقّا الذي يعيش في إحدى العِشَش على أطراف المدينة يخرج قبل آذان الفجر إلى شاطئ النيل، يملأ قرابه ويضعها فوق حماره، ثم يذهب إلى بيوت الكبار والأعيان أولًا، بعد الظهر يلقي ما تبقّى في أزيار الحرافيش ويتحدث مع هذه وتلك، يغازل الجاريات وبعض سيدات الدور المتبجحة، لكنه لم يخشَ في حياته مثل زوجة مبيض النحاس الحرباء المتلونة، هي ليست إلا قوادة تعرّي لحم الناس وتستر نفسها، تُمنّي ولا تُعطي إلا مالا تملك، وتأخذ الثمن أضعافًا

من الطرفين، تُمنّي الجواري بالعتق حتى يسقطن في الدَّين مع ذل العبودية، وتُمنّي العزباء بالزواج، والمتزوجة بالمال وفحول الرجال، فينتهين في بيوت الفحش بين أرجل الأوباش من الرجال غير أولي السلطة.

كان السقّا يكره لحظة دخوله بيتها حتى بعد أن أصبحت من الأعيان، وزوجة رئيس الطريقة، فهي فاحشة اللفظ والإشارات، كان يراها شيطانةً، لكنه لم يجرؤ يومًا على ذكر كلمة عما يدور في بيتها لأحد ففحشها سيغلبه، كما غلبَت أمَّ يحيي جارتها في الحارة يوم رفضَت الذهاب للتربص بشجر الدر المختبئة بالقلعة، رمتها بكلمات في عرضها، فاضطرَت أم يحيي أن تلمّح بأبي خليل، لم تكد تكمل تلميحها حتى وجدت نفسها عارية وسط الحارة، وأم خليل تنادي جدعان الحارة؛ ليغمزوها بأصابعهم، ولما سكت الناس، ولم يقربها رجل، غمزتها ثم قالت: هكذا يفعل بكِ الرجال، ومعهم أم خليل وعلي وإخوته، وأبوهم إن نطقتِ بكلمة أخرى عني.

رأى السقّا كل ذلك، ورأى رحيل أبو يحي بزوجته وأبنائه في السحَر خوفًا من تهديد تلك الماكرة، بعد أن كشفَت أمام الناس عورة أهل بيته، وعلم السقّا أن ليس له إلا الصمت حيالها، ولكنها أبدًا لم تكن تسكت عنه؛ فكانت دومًا تناديه وتتحرش به في وجود زوجها وتضحك بخلاعة، ثم تقول: ماذا سمعتَ من أخبار، فكان يقول مجبرًا خوفًا من لسانها، وإن غيّر أو بدل كانت النسوة الأخريات يخبرنها، فتقابله بالتقريع في المرة التالية.

منصور السقّا كانت أمنيته الوحيدة أن يرى تلك القوادة معلّقة من ضفائرها على باب زويلة، وزاد حنقه بعد الذي فعلته بزوجها الطيب، لكن السقّا مات قبلها بكثير، فلم تتحقق له أمنيته.

الليل الليل يا ميمون

ميمون الأبله هو العبد المخصص للتسرية عن الأميرات، فهو المهرج السلطاني، ولعبة الجواري، وسامر الليالي الطويلة في غياهب الحرملك، رغم كونه مقطوع النسل بلا أب معلوم أو أم معروفة، فإنه صاحب قوة إقناع عجيبة، أثناء اللهو يدّس ما يريد للجارية التي بقدرِها ودلالها تنقله لأكابر المماليك وقتما تشاء فيتحقق المراد، وهو الذي جعل كبار التجار وعلية القوم يجلّونه ويفتحون خزائنهم تحت قدمَيه، ورغم علّته كان محبًا لاقتناء أجمل الجواري العذارَى، بيده يتغير حالهن، وبأمره وتحت ناظرَيه تصبِحْن أمهات البنين والبنات.

كانت أهم ألعابه المسلية مع المماليك الصغار والعبيد ألا يعرف أحدهم ابنه، ولا تعرف إحداهن أبو وليدها، كان ميمون مغرمًا بمشاهدة الليالي الأولى للعذارى، لا يتقابل أجرًا عن مضاجعة جواريه للمماليك، من تأبى أو تمتعض من تعدد المماليك كانت تلقَى أشدّ صنوف الذل بيديه حتى تهلك، أو تُباع لنخّاس يعذبها إرضاءً

لسيده ميمون حتى لا يغضب عليه، ويهديه بدلًا منها جارية أخرى أصبى وأجمل، وكانت الجارية العاصية تباع لمحلات الهوى تحت الحرافيش ومتعاطي المنزول، فتموت بالمرض أو الجوع أو ضربة خنجر لتريح نفسها.

أصر ميمون المهرّج أن يسمي جميع أبناء وبنات الجواري باسمه، فكان هناك المئات من أبناء وبنات ميمون والألاف من حفدته، وفي عصر الخليفة سليم الأول أصبح الكثير من حفدته من كتبة وحفظة الديوان، ومن أمهر الصناع الذين ذهبوا إلى القسطنطينية ثم انتشروا في أرجاء الخلافة، وتذكُر المرويّات أن ميمون شارك الشيخ العارف بالله أبو العينين فيما اقتطعه من أراضٍ في عهد الملك الظاهر بيبرس، وأنه من تولى دفن أحمد سعيد في مقابر الصدقة نزولًا على رغبة أم خليل صاحبة العصمة ونائب الطريقة الظاهرية، وأنه هو الحافظ لسر أوراق الملك الظاهر بيبرس حتى سلّمها آخر أحفاده للملك سليم بعد شنق طومان باي علي باب زويلة، ويقول البعض أن إحدى حفيداته اعتلَت عرش السلطنة في الأستانة بجوار

السلطان كزوجة وأم لولي العهد، وأن آخر أحفاده كان مقطوع الخلف، ولكنه أصاب شهرة واسعة بمساهمته في نقض حكم آل عثمان.

الوليِ الزانيِ

اقتربت القافلة الملكية المتجهة لأداء فريضة الحج من أطراف المدينة، تبدو على السلطان حالة من التعب الشديد والهزال بعد أن عزم على أن يذهب ويعود مترجلًا كاشفًا صلعته، وقد حذره الأطباء من مغبة تلك الفعلة، إلا أن تشجيع الشيخ المبروك العارف بالله صاحب الخطوة الشيخ أبو العينين الظاهري قد قوّى عزيمته على تلك الفعلة، وهي لا تناسب سنه وقوته بعد سبعة عشر عامًا من الحكم والحروب والغزوات.

حقًا هو الظاهر العظيم الذي قضى على فلول المغول والتتار وجيوب الصليبيين، هو الذي طهّر البلاد من المماليك التابعين لعز الدين أيبك وقطز ومن المماليك الأيوبيين، لكن العمر والصحة لا ناصر ضدهما، ولا ظاهر عليهما.

في الليل ينام الملك الظاهر بالعراء، وجميع الحاشية ينامون على الوسائد والحشيات المغطاة بالحرير، تلك الليلة رأى كابوسًا؛ فقام فزِعًا وأطلق صيحة ارتعب منها جميع من سمعها، طلب قلمًا ودواةً

وقرطاسًا، وفى الحال أمر الجميع بالابتعاد، وشرع يكتب وهو يرتجف، والعرق يتساقط من بين أصابع يده وسائر بدنه.

بعدما فرغ من الكتابة، طوى ميمون الأوراق جيدًا، وختم عليها بخاتم الملك، ثم قبّل يدَ سيده والأوراق، ووضعها داخل طيّات ملابسه.

في رحلة العودة تم عقد قران الشيخ العارف بالله أبو العينين الظاهري على السيدة أم خليل الظاهرية نائبته، والتي أصبحت الآن زوجته على كتاب الله وسنة رسوله، وبحضور السلطان الظاهر بيبرس العلائي البندقداري سلطان المسلمين بمصر والشام، نائب خليفة رسول الله العباسي وأمير المؤمنين، وبشهادة ميمون مهرج السلطان أبو البنين والبنات، والشاهد الثاني المملوك سعدون أول من فتنته أم خليل عند البوابة الشرقية للمحروسة وطلبت نصيبها من حلوى أم علي يوم أن كانت زوجة لهذا المأفون أحمد سعيد مبيض النحاس بالجمالية.

في تلك الليلة دفع سعدون كثيرًا لميمون حتى يحوز أجمل جارية عنده، ولكنهم عائدون من رحلة الحج، ولا جواري معهم لهذا الشأن، وأمام سلطة المال تدبّر ميمون أمره، واستدرج إحدى الحجيج وهي زوجة إسماعيل الشربتلي الجديدة، كانت فتاة فقيرة لا تتعدّى

السابعة عشر من عمرها، زوّجُوها الشربتلي بعد أن دفع لها مهرًا ضخمًا، وقطعة حليّ مطعمة باللؤلؤ.

في الصباح وُجد المملوك سعدون ميتًا في فرشته، وبجواره قطعة كبيرة من المنزول وخنجره، جيوبه فارغة ويديه منقبضتين على خصل شعر أسود لامع به رائحة طيبة من المسك والعنبر، أفتَى الشيخ الظاهرى أبو العينين العارف بالله وصاحب الخطوة أنه مات عائدًا من أرض الله المقدسة ونحسبه شهيدًا فلا غُسلَ ولا كَفن، بل يُدفن بمسكه وعنبر الجنة، ويعمل له مقام سيدي سعدون بالأرض التي مات فيها.

أمر السلطان ببناء مدفن لسعدون المملوك ويسمى مدفن الشهيد سعدون حبيب الله بصحراء الفَرمَا، والذي أصبح فيما بعد مزارًا للحجيج ومن أهم الاستراحات لحمَلَةِ كسوة الكعبة، وعند دخول جيش الإنكشارية العثمانية حدود مصر غازيًا بعد معركة مرج دابق طال وقوفهم في إجلال واحترام لضريح سيدنا العارف بالله، شهيد الحجيج، الشيخ الطاهر سعدون الظاهرى، والذي يقام له مولد

كبير في العاشر من محرم كل عام، تحضره كل طوائف المسلمين من سنة وشيعة، وبعض طوائف اليهود والنصارى في مصر المحروسة.

جلس المملوك سعدون تحت البوابة الغربية لقلعة الجبل بين زملاءه من الحراس والمماليك، وقد الْتفّوا حوله يستمعون حكايته المقدسة والمكررة يوميًا عن الجنية أم علي أو أم خليل، تلك الحُبلَى ذات الجدائل السوداء التي سلبَت لُبّه رغم فقرها، والهزال البادي على وجهها وجسدها، ولكن بعينيها نظرة منادية، مستحثة، شرسة، الْتَهمَت قلبه وجعلته ينتظر أن تعاود المجيء؛ لتأخذ كفايتها من حلوى أم علي المحلّاة بالعسل والمغطاة بالجوز في اللبن الصافي،بقطع الثريد المهشمة.

أم علي الحلوَى، وأم علي الأنثى سلبتا لبّه من يومها، لكنها ذهبت ولم تعد، لا يعلم لغيابها سببًا، ظل سعدون يحكي كيف أوقف التوزيع في انتظارها، ورفض إلحاح الفقراء، وتجاهل بكاء الصغار لأجل خاطرها، ولما قارب وقت العصر خرج هائمًا في شوارع المحروسة يسأل عن أم علي فلم يصل إلا إلى نساءٍ لا يصلحن لمثله وتأكد أنها ليست أم علي، وفي لحظة مرَحٍ غاضبة من التي تصيب فاقدي الأمل سأل عن أم خليل، أوصلوه إلى بيتها، وكانت هي نفسها

أم علي؛ فبهت سعدون، ووجد حولها من العيال خمسة غير ما تحمل في أحشائها، دخل بيتها فوجد أحمد سعيد أطلال رجل؛ فازداد طمعًا وازداد رغبة، فتنتهِ بما لم يعلمه؛ ليصبح طوع بنانها تطمّعه ولا تروي ظمأه، كانت تعلو ويعلو معها حتى أصبح رئيس حرس السلطان، وأصبحَت نائب الشيخ أبو العينين والطريقة الظاهرية، وبعدها أصبح أبو العينين شيخ مشايخ الطرق الصوفية؛ مما فتح لثلاثتهم الأبواب للوصول إلى ما فاق أحلامهم، وفُتحَت لها آفاق جلب الجواري لميمون وكبار المماليك، وهي لم تنسَ جارتها أم يعقوب فزوّجت بنتيها لمملوكين تابعين لسعدون مقابل عُشرَ المهر، والكبرى أخذت فيها رُبعَ المهر؛ فقد تزوّجت الشرْبَتِلي الثري، وكانت تساعد نساء الحارة وأولادهم وبناتهم مقابل عُشرَ الربح.

كان سعدون رافضًا للزواج مهما جلبت له من نساء، وكانت ضحكتها الرقيعة تلهبه، وتبلبل أفكاره، وكانت تقول له: انتظر بالصف حتى يأتي دورك بعد أبو خليل، في تلميحة شيطانية مات على أثرها أحمد سعيد مبيض النحاس، والمكنّى بأبي خليل بعد أن تعاطَى من المنزول

ما يقتل جملًا في ليلة جمعة، ارتدَت له فيها مالا يطيق، فسقط فوقها سقطة الوداع، لكنها لم تتزوج من سعدون، متعلّلة أن الصغار في حاجتها تارة، وبأنه لا يحتمل غنجها تارة أخرى، حتى جاء اليوم المشئوم وسمع أبو العينين يطلبها من السلطان لنفسه.

كان سعدون يحكي ويستفيض وهو يبكي، والمساعدون والأتباع يواسونه متعجبين من ولَعِه بتلك المرأة التي لم تترك مملوكًا إلا لمّحت له، بل وصرّحت أحيانًا، كلهم يعلمون أنها تفتح البيوت السرّية بمساعدة وعلم أبو العينين، والأغرب أنها كانت لا تتورّع عن تقديم نفسها لأي أمير في سبيل السلطة والمال، حتى أنها لمّحت للسلطان نفسه، وأن الحاضرين لمَحُوا في عيونه رغبة لولا أنه السلطان.

سعدون عبدك وخادمك المطيع يا مولاتي، يقولها لكل ملكة من شجر الدر والسلطانة أم علي، مرورًا بجِلنار حتى زوجات الملك الظاهر وسراريه.

سعدون العبد الذي طمع في حياة الأحرار والأمراء؛ فمات عاريًا من كل ما يرفع ذكره، وإنْ رُفع ذكره بعد الموت، لم يتذكر سعدون من ماضيه غير الحراس يجرونه للمركب المسافر إلى دمياط، لا يفهم لهم كلامًا إلى أن كلمه أحدهم بلسانه بعد أن رست المركب في دمياط، حَلُّوا عنه القيود حين أصبح على الأرض، نزل سعدون في مكان قذر مُلئَ بالصبية أترابه، اثنين أو ثلاثة منهم في مثل عمره، أحضرهم نفس النخّاس الملعون.

دخل الحراس واقتادوهم للعراء، أوقفوهم صفوفًا عرَايا، ثم أدخلوهم إلى الحمام بعد أن نثروا فوق رؤوسهم وأجسادهم ما يقتل الحشرات والقمل، كان سعدون يشعر بالبرد، وزادته المياه إحساسًا بالبرودة حتى ظن أنه سيتجمد ليصبح أحد فنارات البحر في دمياط.

حضر بعض المماليك المهمين، أو من ظنهم وقتها كذلك بعد أن رأى الانحناء والتبجيل، رأى أحدهم شابًا، ولولا ملابسه لاحترت في كونه أنثى أم رجل، يقولون له السيد ميمون، ذو لحية مدهونة، وشعر غزير مفروق، وصوت ناعم لكنه حاسم.

كان ميمون يمر بين الصفوف ويتحسس الصدور والأذرع ثم يشير، يأتي أحدهم بخاتم محمّى عليه في النار، يسمّ به الذراع الأيسر للمملوك الجديد بكلمة لم يفهمها سعدون إلا بعد الاعتياد على أجواء القصور وترفها، كلمة لخّصت حياته، وعمره، وتاريخه، في أحرف على ذراعه، تخبر أنه أصبح مملوكًا لمولانا الملك الصالح أيوب، فياله من تشريف لصبيّ صغير.

بعد رحيل السيد ميمون حضر العبيد، واقتادوا من وقع عليه الاختيار وبرفق إلى قصر الملك، قسموهم إلى مجموعات تبعًا لحالتهم واختيار ميمون، بعضهم يذهب كهدايا للأمراء، وبعضهم لمعسكرات الجند، والبعض الآخر يذهب للطبيب؛ فيكون طواشيًا للحرملك، وقليلًا يبقى من المقربين بقصر الملك منهم سعدون، يأتي الطبيب

ويختِن منهم من لم يختَتِن، ويحضر شيخ المسجد الملكي؛ لينطقوا أمامه بالشهادتين، ثم تبدأ التدريبات على ألعاب القتال، وعلى السمع والطاعة لكل الأمراء والملوك والملكات طوال حياتهم.

من وقتها تعلّم سعدون الدرس جيدًا، وأصبح من المقربين يومًا بعد يوم حتى أتته المرأة الملعونة أم خليل في ذلك اليوم المشئوم، وأغوته غواية الحيّة لآدم، تبعها مسحورًا إلى أن وجد الخنجر في يده، والمرأة الجميلة تحته، لكنه لم يرِد إلا الملعونة أم خليل التي فارقها الجمال ولم تفارقه لعنة سحرها، وفي لحظة وجد النصل يقطع يده بدلًا من التفاحة، والمرأة المذعورة تنتفض وتجري في عريها، تُلملِم ما جاءت به وتجري على خيمتها متخفية في ظلام الليل، تركته وحيدًا ينظر في عين الحيّة التي أغوته، حتى أغمضت عيونه ورحل شهيدًا، قال الشيخ الظاهري: إنه مات دفاعًا عن السلطنة، ودفنوه بلا غسل ولا كفن، إلا من وشمٍ على ذراعه، أنه عبد مولانا الصالح.

استلقت زوجة الشربَتْلي الشابة مبهورة الأنفاس لحظة أن أحضر سعدون خنجرَه، ظنّت أنه سيغمده في صدرها، ولكنه بدلًا من ذلك قطع به ساعده الأيسر؛ فانفجر الدم مغطيًا وجهها وجسدها العاري، لم تدرِ ما تفعل بجسد سعدون الملقى فوقها حتى استعادت وعيها؛ فرمته على الحشيَة بقوة، وقامت تجري ملتحفة بملاءته الحريرية، وقد مسحت وجهها وجسدها من أثر الدماء في سراويله البيضاء.

لم تدرِ جِلنار ابنة يعقوب صانع السكاكين والمتزوجة حديثًا من الشربتلي العجوز الهَرِم أن عيونًا رأتها تخرج من خيمة سعدون، عيون ميمون التي كانت تتلذّذ بمراقبة كل ما يغضِب الرب، كانت تلك فرصته التي لم يتوان عن استغلالها؛ فهاجمها داخل خيمتها وبيده سروال سعدون، وتفاوض معها على طاعته، وفي لحظات اليأس من كل من حولها وافقَت؛ لتصبح فيما بعد أم متولي شرْبَتلي الأشرف قلاوون الخصوصي، الأخ الأصغر للتوأم طاهر وناصر، وكلهم أبناء الشربَتلي الكبير الذي أصابته لوثةُ الكِبَر، والتي كانت تزداد مع كل ولد تلده جلنار التي أصبحت وصيفة مقربة في حريم الملك قلاوون،

والتي كانت تنثر الدر والذهب أينما حلّت، إلا على أبيها يعقوب، قبضت يدها وأغلقت بابها في وجهه، فعاش ومات يعقوب صانع السكاكين بحارة قيوان بالجمالية، صاحب ورفيق أحمد سعيد مبيض النحاس من البدء للمنتهى، وإن دُفن في مقابر النصارى بصحراء الدراسة، قريبًا من مدفن صديقه بباب النصر.

أما جِلنار ورغم كل ما وصلت إليه، إلا أنها قد ماتت مُعدَمة منهَكة من مرض غريب أتاها من شاب ساقتها إليه رغبتها في الخروج من سيطرة ميمون العبد المهرج، فاتجهت للمنزول؛ لتنسَى ما ألمّ بها، وعاقرَت الخمر حتى شارفت على الإفلاس، أدخلوها بيمَارِستان السلطان قلاوون فهرَبَت، وماتت حافية على باب حارة، ودُفنت جوار أبيها يعقوب رغم الجفاء الذي استمر سنوات طوال منذ موت سعدون.

كانت جِلنار ورغم رؤيتها لملابسات انتحار سعدون تذهب كل عام؛ لتتبرك بسيدنا سعدون الولي الصالح في موعد الاحتفال بمولد سيدنا سعدون، الذي أبَت الملائكة إلا أن يكون شهيدًا، فأتاه ملك الموت

ولم يقبض روحه إلا بعد أن قطع يده، ونثر دمه قربانًا على رمال الصحراء، لم تكن جِلنار فقط التي تقف وتبكي وتضيءُ الشموع عند شباك الضريح، بل كانت أم خليل، والشيخ العارف بالله صاحب الحظوة والخطوة أبو العينين الظاهري يأتيانه، ويقيمان الاحتفالات لثلاث ليال بين ذكر وتهليل وجمع للنذور، وكثيرًا ما قالوا أن زوجة السلطان كانت تأتيه طلبًا للبركة، بل والسلطان ذاته كان يذهب في أسفاره عن طريق الضريح ويقرأ الفاتحة، وقد أعطى الأوامر بالطواف سبعًا حول الضريح لمحمَل كسوة الكعبة قبل استلام الطريق إلى المدينة المشرفة.

الملك الصالح

منزوية بجوار التَّختِ تنظر إلى هذا العتل المشرب بالحمرة والذقن المحناة بالأحمر، جالسًا على تختٍ مغطًى بالحرير الموشّى بالقصب، الصالح نجم الدين أيوب الذي رآها من سنين بين الجواري المعروضين، فالْتقَت عيناه بعينيها وأصدر الأمر مباشرة بالشراء، لم يكن حينها غير أحد الأمراء الأيوبية.

أحضرها النخّاس للقصر، الجواري أخذنها للحمام وزيّنها، ثم ذهبت مع العبد ميمون أغا من الحريم إلى مخدع الأمير، لم تدرِ بنفسها إلا وهي تفر من بين يديه خائفة من عظيم هيكله وهو يلاحقها هاشًا باشًا في وجهها، لم يغضَب من ذات الخمسة عشر ربيعًا، بل تحوّل لطفلٍ مثلها يجري خلفها ويلقيها بالعنب المفرط، وهي تجري وتلملم، ثم تجري وتأكل، حتى أُنهك فنزل على الأرض كما تخر الجبال، وقفَت على مقربة ترى تلاحق أنفاسه وبدأت تلقي إليه حبات العنب فيلتقطها ويضحك، عندما انتهى ما لديها انزوت في ركن

الغرفة جوار التّخت تنظر إليه بعيني قطة علمَت أنها أصبحَت تملك التّختَ القابع أمامها والجالس عليه، والموعود بكرسي الملك.

بعد الليلة الأولى أصبحت كل الليالي للجارية الصغيرة، وأسماها الأمير الأيوبي شجر الدر، فكانت الشجرة التي ظلّلت ملل حياته، وأنسته المِحَن والدسائس وكل هموم الحياة، حتى جاء اليوم الذي وجد العسَس يقودونه من مخدعه إلى السجن، وجاريته شجر تجري خلفه بلا غطاء لشعرها، تنطلق العربة وهي تجري جوارها باكية إلى سجنه الكبير، لم يكن السجن فقط الحوائط المشبعة بالرطوبة وتجري على أرضه الجرذان وبقية الهوام، بل كان سجنه أن راحت منه شجر، فكانت وصيته لمملوكه الأمين بيبرس أن يرعاها ويحفظها بعيدًا عن القصر؛ حتى لا تكون مستباحة إن قرّر الملك مصادرة كل ما يملك، عام من البعد والوحدة انتهى بفرحة خروجه من السجن تلته فرحة اعتلاءه كرسي السلطنة؛ ففعل مالم يفعل سابقيه، أن أعتقها وتزوجها وأعلنها ملكة البلاد، كان يعلّمها ويدرّبها على فنون السلطة والحكم، وكان أول ملك يخرج مسافرًا ولا وزير محلّه بل

شجر، كان واثقًا من حنكتها وولاءها، وهو أول من بنى جيشًا من المماليك المشتراة من أنحاء العالم، لا ولاء لهم إلا السلطان، فلا وطن لهم ولا أهل، هو وطنهم وأهلهم، هو الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب، مُنشأ دولة المماليك البحرية، وصاحب الانتصارات العظيمة، وأبو السلطان المنصور خليل الذي مات صغيرًا تاركًا شجر بلا ولد؛ فزاد حب الملك الصالح لها، وزاد من قدرها في الدولة وبين المماليك والرعية حتى توفاه الله والجيش يجاهد ضد غزو الصليبيين بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا، تاركًا خلفه ملكة محنّكة، وزوجة محزونة، ومماليك فرسان أشداء.

مات وشجر تجلس منزوية في ركن تنظر إلى هذا العتل المكدود المنهَك، تتلاحق أنفاسه فلا يقوى على الجلوس من شدة المرض، يسنده مماليكه وهو يُحشرِج؛ حتى انفلتت روحه من بين ضلوعه، وبقي جسدًا بلا حياة، لحيةً بيضاء وعيونًا لم ترَ من الدنيا إلا شجر الدر.

القَدر لا يمهل الفاسديه، ولا الصالحين

عندما وصل خبر حَملِ زوجة منصور الشربتلي إلى سمعه خرّ صعقًا، ظن المحيطين به أنه سقط من الفرحة، وعندما أفاق كان قد جُنّ جنونه وانطلق يَهذِي في الطرقات، ولم يعد إلى بيته حتى يوم مماته عندما سقط بعد أن وارَى التراب جسدَي ولدَيه التوأم ناصر وطاهر في جوار مسجد وضريح سيدنا الحسين بعد أن أصبح من دراويشه، وحامل مفاتيح القاعة، وصندوق النذور نيابة عن الشيخ الظاهري أبو العينين، شيخ الطريقة الظاهرية، وأقوى رجالات البلاط في عهد الملك الظاهر، مرورًا بالعهد القصير لابنه، وحتى عهد الملك محمد بن قلاوون.

بعد غياب الشربتلي تولى الشريف ميمون شيخ الأشراف مراعاة ابنة يعقوب التي أنجبت توأميها، هو الذي قام بختانهما، واختيار اسميهما، وقد ساعدهما كثيرًا في أخذ حقهما من أولاد الشربَتْلي الكبار، على أن ينال الربع من نصيب كل ولد من التوأم.

كانت هيلانة خادمة الولدَين ترعاهما وتعلمهما كولدَي رجل من كبار القوم، وترسل من يعلمهما القرآن، وكان الولدان يذهبان كل يوم إلى الجامع الأزهر؛ لتلقّي العلم، وفي كل جمعة يصلّيان في جامع الحسين، الذي بُنِي تحت إشراف الوزير الصالح طلائع.

كان التوأم يقفان في قاعة الديوان بجوار سيدنا أبو العينين الظاهري، والشريف ميمون رئيس ديوان مولانا السلطان قلاوون وأبوهما الروحي، وكانا يقابلان أبوهما للفراش منصور الشربتلي ويعطيانه بعض الصدقة في الأعياد، ولا يعلَمان أن المال ماله في الأساس، كان منصور يأخذ المال وينظر إلى ميمون ويقول له أكرمك الله في أولادك، وزادك في المال والولد.

كانت هيلانة تذهب بالصبيّين إلى الكنيسة الجديدة المبنية بمباركة البابا يؤانس السابع على اسم الشهيد مار جرجس الكبادوكي الروماني، الذي يسميه بعض شيعة المسلمين من الدروز بالخِضر، حيث أنفق على تشييدها الثري أثناسيوس في عهد السلطان قلاوون

بعد خلع ابن السلطان بيبرس وزوج ابنته من فوق العرش، وحلّ قلاوون محله بقلعة الجبل.

عندما كبر ناصر وطاهر زوّجَتهما أمّهما من الأختين مريم وجِلنار ميمون ابنتي رئيس الديوان والمهرج السابق لبلاط السلطان من زوجته الشابة جهاد، ابنة مبيض النحاس أحمد سعيد والسيدة المعصومة أم خليل زوجة الشيخ أبو العينين الظاهري، كان مهرهما عشرة أُوقِيات من الذهب الخالص لكلّ، أعطاهم ميمون لأم خليل في خيمة عند صحراء الهرم نظير مساعدته في استدراج الأخ الأصغر للأمير سرحان النبقي؛ لمعرفة أسرار ومخازن سلاح الأمير وعدته وعتاده وأماكن تجمع مماليكه؛ ليمكن السلطان قلاوون من السيطرة على البلاط، والقضاء على مناوشات من تبقّى من مماليك وأتباع الظاهر بيبرس.

مع بزوغ فجر أول أيام رمضان من العام التالي، مات أخُو الأمير بمرض الزهريّ قبل أن تُحتَجز ابنة يعقوب في البِيمَارِستان الجديد بحارة القاضي، والذي فرّت منه بعد فترة حتى وُجدت ميتة بإحدى

الحواري، وبفمها قطعة كبيرة من المنزول، وقد دُفنت بجوار أبيها في قبر واحد.

كانت تحلم أن تتزوج من المملوك سرحان النبْقِي وتكون امتدادًا لجِلنَار زوجة الملك المظفر، فزوّجوها الشربتلي العِنّين، وأنجبت من سعدون المملوك الخائب، وتولّاها ميمون المخبول، وماتَت بسبب شاب مريض، بعد أن قضَت على أمير صغير وأخيه الخائب.

أجلَسُوا طاهر القرفصاء في ركن محبسه بعد أن سب الشيخ الظاهري أبو العينين، ووصف أم خليل زوجه بالقوادّة بعدما وصل إلى مسامعه قول الحرافيش إن أباه الحقيقي ليس الشرْبَتلي، وسابَق علمه أن ميمون رئيس الديوان الملكي رغم انتشار ذريته ليس والدًا لأحد، الأب الحقيقي إذًا أحد عُشّاق أمه جلنار، فاستلّ سكينه على رقبة أمه ومربّيته هيلانة التي ضعفت واعترفت بكل ما تعلم، وأقسم طاهر أن يتحرك وحيدًا دون أخيه الغارق في ملذاته مع أصدقائه من مماليك الظاهرية، يومها تحرك سريعًا إلى الشيخ الظاهري، ووضع السكين فوق رقبته في صحن المسجد الذي أنشأوه لسعدون على أطراف المحروسة، وفي وسط الصحن صاح عاليًا: اعترف بكل شيء أيها القوّاد، وكاد فعلًا أن يقتله لولا الحيّة أم خليل التي شاغلته؛ فسبها، فأخذت تتحدث معه بصوتها الناعم حتى انقضّ عليه الحراس، وأسقطوا سكينه من يده وكبلوه.

كانت رقبة طاهر معلّقة لثلاثة أيام على بوابة المِتولّي ولم ينزلها إلا الشربَتلي الدرويش المخرّف، قائلًا لمساعده في رعاية المسجد: إكرام الميت دفنه، دفنوه بجوار أحمد سعيد مبيض النحاس بلا غُسلٍ ولا كفن، وقرأوا الفاتحة ثم رحلوا؛ ليلحقوا بصلاة الفجر قبل أن يبحث عنهم مولانا الظاهري.

بينما كان طاهر مشنوقًا على باب زويلة، كان ناصر توأمه معلقًا من يديه المكبلتين ظانًا أن أخاه طاهر قد خانه، ووشى به عند الشيخ الظاهري، مع كل ضربة سوط كان يلعن أخيه الخائن الذي وضع يده في يد القواد الشيخ، والمرأة القَحْبة أم خليل، مربيّة العاهرات التي باعت زوجها وتركته يُدفن في مقابر الصدقة، وباعت بناتها للمماليك والأزواج الممتلئين بالدنانير بلا شباب، لعنكَ الله يا طاهر في كل كتاب، أنزَلُوه في حضرة ميمون وفكّوا قيوده ثم خلعوا عنه كامل ملابسه، وأدخلوه غرفة وأجلسوه على مقعد له أربطة قيّدوا بها يديه وقدميه، ثم دهنوه بالعسَلِ ووضعوا الغطاء الحديدي الغليظ فوق رأسه وجعلوا يضبطون المقاييس ثم خلعوه، أتى الحلاق فأزال

كامل شعره ومشُوا بالإبر فوق رأسه، فنقروا نقرًا خفيفًا حتى انبثق الدم ضعيفًا خيوطًا واهنة متقطعة.

جاءوا بالخنافس، ووضعوها على الرأس العاري، ثم أحكموا وضع الغطاء.

جزاء من يخون مولانا السلطان قلاوون ويقف في صف هذا المأفون ابن بيبرس هو جزاؤه، أتدري ما الجزاء؟ القتل البطيء؛ لتكون عبرة لكل خائن، سنكتب على رأسك هذا العبد الخائن لمولانا قلاوون، والتابع للخائن ناصر الدين الذي خالف عهد أبيه الملك الظاهر بيبرس البندقداري مولانا وحبيب مولانا الملك الصالح، فلم يحفظ هو ولا رجاله عهدًا ولا ميثاقًا، فكانوا شر خلف لخير سلف؛ فأنزل الله بهم غضبه ولعنته حتى يوم يبعثون.

في صباح اليوم التالي نادَى المنادي في الطرقات: إنه اليوم الحادي عشر من ذي القعدة لسنة ثمانية وسبعون وستمائة بعد هجرة رسول الله، مات بمدينة الكرَك محمومًا مغمومًا الخائن السعيد ناصر الدين محمد بركة قان، ابن الملك الظاهر بيبرس البندقداري الصالحي النجمي، وزوج ابنة مولانا السلطان قلاوون الألفي، مات الخائن سليل الشرف، ونسيب الشرفاء والملوك بعد أن خان وهان، فسقط وأسقط، وأراد سوءًا؛ فرد الله كيده في نحره هو ومن تبعه من الأوباش والصعاليك.

مر موكب المُنادِي تحت البرج الأحمر بقلعة الجبل، والعمامة الحديدية فوق رأس ناصر تلعق الخنافس في دمه وتأكل من جلده حتى نفذت إلى عظام رأسه، عند العصر ستكون قد أكلَت مخه وأفرغَت عينيه.

مازال فيه الروح، يسمع قليلًا المنادي الثاني ينادي أنه بفضل الله ومنّته انكشف المستور وعرف الناس حقيقة الأوباش وشرار القوم، واليوم قبل الضحى عُلّقَت على باب المتولي جثة الأجير ابن الحرام طاهر الشربَتلي بعد أن مات شر ميتة كالجرذان والكلاب الضالة، وقد أمر مولانا قائد الخاصِكية ورئيس الديوان الشريف ميمون بعد مباركة سيدنا وشيخنا أبو العينين شيخ الظاهريين بتعليق وقتل من سوّلت له نفسه مثل فعل هذا الخائن الغادر وأخيه أبناء الحرام، ولا تُدفَن جيفتَهم إلا بعد ثلاث ليال سويًا.

عندما أعاد المنادي النداء كانت الخنافس قد أحدثَت الثقب الأول في عظام الرأس وتسلّلت إلى النافوخ، أغلق ناصر عينيه وأذنيه على اسم أخيه وتوأمه طاهر الشربتلي.

مه يأكل لحم أخيه لا يسلَمُ مه ضباع الأرصه

ولو أسهلوه

طفرت من عينه دمعة وتذكر صديقه قطز، ثم أمر بخروج الجميع من خيمته حتى ميمون كبير الخاصكية وعبده الأثير رغم كل قذاراته، وقد أوشك أن يسبّ الشيخ أبو العينين كبير الطريقة الظاهرية؛ فهو يعلم الآن وسابقًا أنهم الضباع الذين نهاه قطز عن ملازمتهم، سبعة عشر عامًا مرت كالريح السابح في السماء، ودارت الارض دورتها فبصره اليوم حديد.

يرقد القائد الظاهر بيبرس على سرير المرض في خيمته على مشارف دمشق بعدما طَردَ فلول المغول الفارسية، وبعدما نصّب ابنه السعيد سلطانًا على البلاد في سن صغيرة، وزوجه ابنة كبير الأمراء المقرّبِين قلاوون الألفي وهو في الخامسة عشرة؛ حتى تكتمل له هيئة الملك، وبركة الآن على مشارف العشرين، وسيكون ملكًا، وستأكله الضباع التي قتَلَت قطز المنتصر والمظفر، قريبًا من تلك الأرض التي سيموت هو فيها.

نادى: قطز، ثم نادى ونادى وقال: مولاااي قطز، صديقي الأثير، زوج جِلْنار الحبيبة، ها قد قاربَت الضباع على نهش لحمي وعرضي.

كان كأنه يرى ابنه تنهشَه ضباع المماليك، هو يعلم أن خوفهم فقط من المماليك الظاهرية، وأن قلاوون ليس له عهد، حتى عهد النكاح بين ابنته وبين الملك السعيد قد ينقضه، كان بيبرس شيخ العالمين بحال حاشيته، وأنهم أول من سيغمِس يده في دم الملك الصغير، أرسل من يحضر بدر الدين بِيلبك الخازندار نائب السلطنة، وأمره كتمان خبره إن مات، حتى يعلم الملك السعيد وتنتظم الأمور، ويعدّ حاله وتعود الجيوش إلى قلعة الجبل لتكون تحت إمرته.

قبل العشاء أمر نائب السلطنة بدواة وقلم وقرطاس ثم كتب: إنه بسم الله الرحمن الرحيم، توفي إلى رحمة الله مولانا وتاج رؤوسنا، أسد الدين حامي حِمى الإسلام والديار، الملك الظاهر بيبرس البندقداري الصالحي النجمي وهذا للعلم والتدبر، حتى لا تجتهد الضباع والخفافيش فتدبر أمرًا بلَيل، فانظروا ماذا أنتم فاعلون.

عندما تسلّم الملك السعيد الرسالة أخفى حزنه، وأبدى ابتهاجًا وفرحًا في ربوع المحروسة بانتصار الجيش وقرب عودة مولانا السلطان مزهوًا منتصرًا، ثم ارتقى العرش ونال المواثيق والعهود ممن تبقّى من المماليك عنده، بعدما نال الخازندار العهود المغلّظة باسم الملك السعيد سلطانًا وملكًا للبلاد، ونائبًا للخليفة العباسي على أرض مصر والشام.

صباح الجمعة التالية لقدوم الجيوش الظافرة، جلس التوأم طاهر وناصر الشربَتلي في الصف الأول بجوار أستاذهم ومربيهم ميمون الأبله قائد خاصكية السلطان المرحوم بيبرس البندقداري، والأمير الألفي قلاوون صِهر السلطان السابق وحموُ السلطان الجديد، فرِحين بالمِلك الشاب، رافعين أياديهم؛ يبتهلون إلى الله، ويُؤَمّنون على دعاء مولانا الشيخ أبو العينين الظاهري شيخ المشايخ بالمحروسة والشام وعموم بلاد المسلمين، والنداء لاسم السلطان الشاب أبو المعالي الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة قان بن الملك الظاهر بيبرس البندقداري الصالحي النجمي.

بعد صلاة العشاء انطلق الحواة والدراويش والعُيّاق يلعبون ويغنون للملك الجديد، ووهبت أم خليل أجمل الجاريات للمماليك الشباب المقربين من السلطان، فيما كانت جِلنار تتخبط في الأزقّة على أطراف صحراء الدراسة من ألم المرض الذي لم يذهب حتى بعد أن تعاطَت كل ما تملك من المنزول، إلى أن سقطت ميتة على باب زقاق اليهود القرّائين في أطراف الجمالية.

مرّ نعش أم يعقوب تحت مشربيّة ابنتها جلنار؛ فنادت إحدى فتياتها الجارة المواجهة للمنزل الكائن بحارة قيوان عن صاحب الجنازة، ولمّا علمت أنها أم سيدتها جِلنار هرولت صاعدة إلى غرفتها لتخبرها، لكن جلنار نهرتها بشدة؛ لأنها تجرأت وطرقت الباب وهي تعلم أنها نائمة بعد ليلة مطوّلة مع حبيبها صبيّ الحداد الذي يأتيها ليلة الجمعة خلسة.

لم تكن جِلنار تعلم أن شدة حبها لهذا الشاب عديم الأصل سيكون فيه نهايتها بالمرض السرّي الذي يخافه الجميع، وتلك الليلة عندما حل المساء لم تستطع جِلنار النوم؛ فقد جاءتها كل الأفكار والهواجس، ودهمتها ذكريات الأم الحنون؛ فشربَت حتى تخدّرت ونامت على كوابيس الشياطين.

في الصباح ارتقَت إلى المرتفع الكائن أمام قلعة الجبل، ثم انعطفَت يمينًا بعد مزرعة الخنازير حتى قابلت خالها الذي دلّها على قبر أمها، تزودت بالمال والقُرَص المحشوة بالعجوة، وتسنّدت على يد سنية

البهلي بنت محمود الأعور طبال وقوّاد حارة الغوازي بالحسينية حتى وصلت للمدفن، بكَت طويلًا وقرأت لها سنية القرآن، وقرأ صبيّ حارس المدفن بعض المزامير حتى هدأت روحها، عادت مسرعة إلى المنزل مارّة بصبي الحداد؛ حتى ينسيها ما كان، علمَت أن الأطباء قد احتجزوه بالمشفى بعد ظهور علامات المرض على تفيدة عاهرة سوق السلاح وكان من روادها، وأنها اعترفت على زبائنها؛ فأخذوهم جميعًا للفحص.

كانت تلك الليلة التالية التي لم تنم فيها جِلنار، والحقّ أنها لم ترتَح في نومها بعد ذلك اليوم؛ فقد تلوثت سمعتها وخرب الدار وفر الزبائن، وأصبحَت لا تجد من يسقيها شربة ماء، اضطرَت للوقوف على أطراف الأزقة وأبواب الحانات حتى تجد لقمة تأكلها وثمن المنزول، هجرَتها صبيّاتها إلى بيوت أخرى أو إلى العمل وحدهن بالحارات، إلى أن جاء اليوم الذي سقطَت فيه على باب حارة اليهود بعد أن ضربَها أحد الزبائن عندما شك بها قبل أن يمسّها، ومن سوء

طالعها أنه كان يعمل بالمشفى؛ فخرجت تتخفّى إلى أن وصلت لباب الحارة؛ فابتلعت المنزول وسقطت بعدها بلا أثر للروح داخلها.

لهفي على غادةٍ إذا أسفَرتْ غارَتْ وجوهُ الشموس واستترتْ

لها من السمر قامةٌ خطرَتْ كـم قتلـت عاشقًـا وكـم أسـرَت

تخطى ميمون الأبله الثمانين وقد تحول مهرج السلطان؛ ليصبح الشريف قائد خاصكية الملك قلاوون الألفي، لكنه لم يتخلص بعد من عادة ليلة الجمعة؛ حيث تتزيّن جارية وتدخل مخدعًا معدًّا بشكل خاص في قصره الكبير، وقد تجهّزت أريكة لميمون على درج أعلى قليلًا، أمام الأريكة منضدة عامرة بالخمر المُعتّق، ولحم الديوك، والغزال، والطاووس.

يقف المماليك والعبيد بلا ترتيب معيّن خلف الأبواب، ينادَى رقم فيُدخلون العبد الذي عليه الطلب؛ لينال من الجارية أمام ناظريه، قد تأخذ ميمون الحماسة فيصفّق ويضحك، ويطلب الإعادة حتى صلاة الفجر؛ فيجري منطلقًا إلى جامع الحسين على بغلته المزينة، يصلي الفجر حاضرًا بجوار السلطان، أو أتابِك الجند، أو أيًا من يبعث به السلطان؛ ليحل محله في تلك الصلاة المباركة، يجلس ليقرأ القرآن، ويحادث الشيخ الظواهري حتى الصباح.

في ليلة من تلك الليالي واتَته فكرة، نادى عبدًا أسود اللون أحضره أحد رسل السلطان من الحبشة، هو هدية للسلطان رأى أن يهديه لميمون الذي ساعده في عزلِ ونفيِ الملكِ سلامش الابن الأصغر لبيبرس بعد عدة أشهر من جلوسه على تَخْتِ السلطنة، بعدما خدعوه وولّوه الملك بعد نفي أخيه؛ حتى لا تثور المماليك الظاهرية فيأمن شرهم إلى حين.

بعد مرور كل تلك السنوات ووفاة الملك قلاوون ثم استقرار الحكم لابنه السلطان ناصر الدين محمد بن قلاوون، والذي عُزل ثم عاد، ثم عُزل وعاد ثالثًا، وبعد أن أصبح العبد الحبشي رجلًا هرمًا لا يرجي منه خيرًا لم ينسَ ميمون أنه أصاب من وراءه الربح الوفير، فكم وَلدَتْ له من جاريات، وكم قضى أوقاتًا طيبة يشاهد حماسه في الغرف الخاصة، وكم من بِنتٍ أو ولد له أصبحوا من المقربين للسلطان، لا يعرف العبيد والمماليك أبناءهم، لكن ميمون بنظرة واحدة للمولود كان يعرف أباه.

تلك الليلة راقَت لميمون فاتنة يهودية فرّت من نيران الحروب الأهلية في بيزنطة؛ حيث تصارع أهل المذاهب في البلاد رغم وحدة الديانة واتحدّوا فقط ضد اليهود والعرب، وقد تهدّمت أركان الإمبراطورية بعد الحملة الصليبية الرابعة التي اندحرت بالمنصورة.

فرّت رفقة على متن مركب صغير عن طريق البَسفُور في إحدى ليالي الشتاء، سقطت في أيادي قراصنة جركس الذين باعوها في الشام، تنقّلت بين الأسياد حتى أُهدِيَت لميمون من أحد أمراء المماليك؛ ليحصل علي ترقية لقائد حامية إحدى قرى حمص.

تزيّنَت رفقة كعادتها كل ليلة جمعة متمنّية ألا يأتيها الداعي من طرف ميمون الفاسق؛ فهي تكرهه إلى حد الموت، ولكنها تكره أكثر تلك الماجِنَة أم خليل التي حضرَت وهي فوق التسعين بدون شعر ولا أسنان، لا تتوقف أم خليل عن التصفيق وإعطاء الأوامر للعبد، تمنّت رفقة وصلّت للرب، لكن الطواشي طرق الباب.

عندما فتحت رفقة عيونها بعد أن وضعت المولود قالت لها القابلة: مبارك على البنيّة، فقالت رفقة مندهشة: بنيّة هي؟ ضحكت الموجودات من الجواري على الرعب البادي في عيون رفقة، قالت إحداهن: هكذا لن تخافي عليها من مصيرنا، اللّٰهُمَّ لو قرّر سيدنا ميمون إدخالها على الجواري بدلًا من العبيد، وانطلقن في ضحكٍ ماجِن، أخبرت كبيرة الجواري رفقة أن العبد أبو البنت قد مات من أيام حزنًا على فراقها، لم ينسَ تلك الليلة على كل الليالي السابقة في حياته.

نزلَت دمعة من عيون رفقة؛ فهي رغم نفورها منه ومن ابنته إلا أنها تعلم منذ تلك الليلة أنه لا عشق لامرأة كان كعشق سعدون لأم خليل والسلطان قطز لجِلنار، وهذا الحبشي العجوز لها.

لا تدري رفقة سببًا لأن ينساها ميمون دون رجال بعد الحبشي الهالك، حتى أصبحت متيقنة أن قطعة اللحم ابنته.

سألت عن اسمها؛ فأخبَرْنَها باسِمِين أن مولانا ميمون قد أسماها اتفاق(*)، لكن دونًا عن سابقيها لم ينسبها ميمون لنفسه، بل أهداها لأحد بيوت الغناء في بلبيس، والذين كثيرًا ما أحيوا له ليالي الطرب.

أحسّت رفقة بالجبل ينزاح من فوقها؛ فابتسمت للمرة الأولى منذ تلك الليلة.

(*) جاء ذكر اتفاق في عدة مواضع، مثل: "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" لابن تغري بردي، و"الدرر الكامنة" لابن حجر العسقلاني.

قال ابن تغري بردي مما قال عنها: "وهذا ثالث سلطان من أولاد ابن قلاوون تزوج من هذه الجارية السوداء، وحظيَت عنده، فهذا من الغرائب، على أنها كانت سوداء حالكة لا مولدة، فإن كان من أجل ضربها العود وغناءها فيمكن أن تكون أعلى منها رتبة في ذلك وتكون بارعة الجمال بالنسبة إلى هذه.

في العام الثالث عشر لميلاد اتفاق توفي السلطان الناصر أبو الفتح محمد بن المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي يوم الخميس الموافق للعشرين من ذي الحجة في العام الواحد وأربعين بعد السبعمائة لهجرة النبي.

رُفعَت رايات الحزن أربعين ليلة على القصر وقلعة الجبل، وبِيعَت اتفاق في تلك السنة إلى أحد أعيان القاهرة الذي أُغرِم بصوتها وضربها للعود.

فسبحان المسخر". ويبدو أنه لم ير اتفاق أو لم يكن من محبي التنوع في الجمال؛ فيرى الجمال وكأنه حِكرٌ على نوع من البشر دون غيرهم، وليحمل هو قوله في رقبته، أما هنا فما ذَكرْناها إلا لما رأيناه من جمال فيها جعل الملوك يهجرون الزوجة والمحظية؛ ليكونوا عبيداً لجمالها وصوتها وضربها للعود، ولينجبوا منها الولد؛ فولدت للصالح إسماعيل وأخيه الكامل سيف الدين شعبان.

ائتفاق الهوى

كان للخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك جارية مولّدة شكَت إليه يومًا أن مؤذن القصر لا يرفع بصره عنها، وكان سليمان رجلًا شديد الغيرة على نساءه وجواريه، فقال لها تزيني واذهبي إليه فقولي له: إنني أرى نظرك إلي، وإن قلبي به مثل ما بك وأكثر، وهذا أمير المؤمنين غافل وأنا أمكنّك مني إن كان لك حاجة، وإلا فارفع عني بصرك وأنا أذهب ولا أرجع لك أبدًا.

رفع المؤذن عينيه للسماء، وقال: يا جليل أين سترك الجميل؟ ثم قال لها: اذهبي فلا ترجعي، فعسي أن يكون الملتقَى بين يدي من لا يخيب الظن.

رجعت الجارية إلى سليمان فأخبرته بما كان من المؤذن ومنها فأرسل في طلبه، وقال له: إني قد وهبتُ لك خمسين ألف درهمًا والجارية، فقال المؤذن: هيهات يا أمير المؤمنين، والله إني قد ذبحتُ طمَعِي بها في الدنيا منذ رأتها عيناي وجعلتها ذخيرة لي عند ربي، وأستحي أن أسترجع ما ادّخرت عنده.

فجهد به سليمان أن يقبَل عطيته من المال والجارية، ولكنه أبَى فعجب منه، ويحدث أصحابه وجلساءه بأمر ذلك المؤذن وتلك الجارية.

صمتَت اتفاق؛ فسألها السلطان من أين لكِ ذلك؟ قالت: قرأته يا مولاي في كتاب القاضي التنوخي البصري أبو علي؛ فعجِبَ بها أيما عجب، وها هو منذ وهبها له يعقوب الصائغ وطبيبه الخاص لم يخرج من مخدعه، ومرت من الليالي خمسًا وهي تملأ عليه دنياه، فيا لَيتَ الجهلاء من الخدم والحاشية يعرفون اتفاق.

يعلم ويرى اختلاسات البَصَر وهمزاتهم واللمزات، نعم هو يعشق الجارية منذ وقعت عينيه عليها، واهتز فؤاده لما ضَربَت على العود وغنّت؛ فطربَ كما لم يطرب من قبل، أسكرَه صوتها ونظرات عينيها فنسي أنه الملك، قام ورقص، خلع عمامته وملأها ذهبًا أفرغه تحت قدميها.

من ليلة أن اشتراها يعقوب وهو ينوي أن يهبها للسلطان؛ فأتَى لها بكل المعلمين لتزداد علمًا، ورغم ضحك أم استير زوجته على أنفها

المفلطح وشفتيها التي تشبه أشفار الإبل، إلا أن يعقوب الخبير قال لها: إن هذه التي لا ترضيكِ ستملِكُ الدنيا، والسعيد من يمشي في رِكابِها وتحت قدميها فيكون من أتباعها، كانت ليئة زوجة يعقوب الصائغ الطبيب تضحك في نفسها وتقول: جُنّ الرجل وحق الإله.

يوم وصلت القصر ضحكت الحمامية وهي تغسِل جسدها، وقالت لمن كانوا معها ليلًا أنها لم تعرف أن السلطان مخبول إلا الليلة.

أنست اتفاق الملك الصالح إسماعيل خوفه وحزنه بعد موت أبيه الملك الناصر بن المنصور قلاوون، وأنجبت له ولدًا ذكرًا فأصبحت لا تُباع ولا تُهدى، ملكته أكثر بالابن بعد الدلال والظرف والمنوع من جميل الشمائل، وهو بدوره أغدَقَ عليها؛ فكانت تمشي في موكب كموكب السلطان.

كانت صوت اتفاق وجسدها يثيران الحمية في نفس من يسمعها، تغنّي حاضنة لعودها، ويُجنّ من يراها ترفِل بجسد الحوريات في الملبس الذي يخفي ويظهر.

يوم كانت اتفاق تئِنّ من وجع الولادة، والجواري يجرِين يخدِمْنها، والسلطان يتوعدهن ويتوعد القابلة إن أصابها مكروه؛ فهي أهم عنده من الولد، كانت بعض نساء الحارة يسرِقنَ ما بقي في بيت أم خليل من متاع بعد أن مات زوجها من سنين، ورحيل ميمون الأبله حاميها للقاء ربه بدار الحق، وبعد انهيار الطريقة الظاهرية بقدوم حفيد الشرْبَتْلي شيخًا لمشايخ المحروسة؛ ففقدت الأهل والسنَد والمحبين، وقد تخطّت المائة وماتت على باب بيتها تحبو؛ لتصل إلى الخلاء.

كفّنَتْها وغسّلَتْها المغسّلات على عجَل، ودفنَّها في حوش ليس له صاحب معروف حتى يلحقن توزيع الدنانير الذهبية وأطباق أم علي الحلوى الغارقة في السمن والزبيب والعسل؛ لولادة ابن السلطان من اتفاق، بعد سنوات ومع انتهاء حكم قلاوون وبداية حكم الملك برقوق أقام لها أحفادها مدفنًا واسعًا جعلوه مزارًا يليق بنائبة

الطريقة الظاهرية، وهكذا أقيم مدفنها على أرض مسروقة، وصدَق فيها حدسُ السّقا.

وكعادة الدنيا كما تُقبِل تُدبِر؛ فقد أدبرَت لاتفاق، أو هكذا ظنّت، مرض السلطان ومات شابًا، وبموته أصبحت اتفاق حُرة فهي أم الولد، لكن لم تعد ذات هيبة ولا سلطان.

بعد تولّي السلطان الكامل سيف الدين شعبان، أخو الملك الصالح اسماعيل مقاليد الملك بعد أخيه تزوّج اتفاق العوادة؛ فقد كان مغرمًا بها في عهد أخيه الأكبر، وكان متزوجًا قبلها من ابنة الأمير بُقْتُمُر الساقي أمّ ولده الذي مات صغيرًا، ومن قبلهما بالأخت الكبرى لزوجته التي طلّقها سريعًا بعد أن ملّ منها، وتزوج الصغرى ثم اتفاق.

عادت الدنيا بالبِشر والسرور لاتفاق مرة أخرى، وتمكّنت من السلطان شعبان أكثر من أخيه؛ فأغدق عليها وشاركها أمور الحكم، وصنع لها أربعين حُلّة مرصّعة بالجواهر، والمقاعد المزركشة. بنى لها البيوت، وأعطاها الأراضي والعطايا، لم تلبس في

عهده إلا الملابس المُحلّاة بالأحجار واللآلئ والذهب، لكن الدنيا كما تعطي تأخذ؛ فقام الأمراء المماليك على السلطان وسجنوه، ثم قتلوه بعد عام من جلوسه على كرسي العرش، وتملّك أخوه الأصغر الملك المظفر الذي أمر بإنزالها مع أم أخيه الملك الكامل، وجميع سراريه وجواريه من القلعة ومصادرة أملاكهن، لكن هيهات أن تمنع ما أعطته الدنيا من وسَع، فما لبث أن قام السلطان المظفر زين الدين حاجي بإعادتها للقصر، بل وتزوجّها سرًا، ونثر عليها الذهب واللؤلؤ وأصبح كعبدٍ من عبيدها، أمسَكَت عودُها وهو مبتغاه ثم غنّت ورقصَت فأدارت رأسه، ركَع تحت قدميها وزاد في الإنعام بأربعة فصوص وست لآلئ، ثار المماليك والأمراء وظلوا به حتى أنزلها ثانية، لكنه لم يغفر لهم وعمل فيهم القتل بالحيلة والدهاء، حتى أقرب المقربين، ودارت المراسيل بالعشق والغرام؛ فكانت تمنّيه بنفسها في الدنيا والآخرة حتى يبلل دمعُه الأوراق، لم يلبث أن أعادها سرًا واستمر في حربه الخفية على المماليك الذين استطاعوا قتله وتولية شقيقه السلطان حسن؛ فأنزلها من القلعة واعتبرها أصل البلاء وخاف نفسه منها، ففي أقل من عشر سنوات كادت تطيح

بالسلطنة كما يقول العامة، لكن هل تأخذ الدنيا إلا لتعطي، فقد كان العاشق الصامت الوزير موفق الدين هبة الله بن السعيد متيقظًا منتظرًا الوقت المناسب حتى فاتحها، وألحّ في طلب الزواج إلى أن رضخت، منحها سبعمائة ألف درهم كل سنة حتى مات عنها.

في اليوم الثالث بعد وفاة السلطان الصالح صالح تمّت الصلاة على الجارية المِلِكَة اتفاق، ابنة العجوز الحبشي من رفقة الفتاة اليهودية التي حملَت بها في ليلة مجنونة لم تتكرر؛ فأتَت ما ظنوه مسخًا هربوا منه، لكنها كانت سعدًا لنفسها ومن قرب منها، وصدق يعقوب الصائغ الطبيب وكانت الفتاة سعدًا لهم.

بعد انقضاء أجَل الوزير زوج اتفاق التي كانت ملكة وأنزلها السلطان حسن من القلعة؛ لتعيش في دارها وسط العامة من عِليَة القوم، تلك الدار التي بناها لها الملك الكامل سيف الدين شعبان على مساحة شاسعة من الأرض مزيّنة بالحدائق، عاشَت اتفاق زوجة للوزير حتى وافَتهُ المنية؛ فوجدَت نفسها وحيدة بلا أنيس أو جليس؛ فقررت أن تحيا مثل زوجات اليهود والعُجْم ما بين لهو وحفل وخروج وترف، وبدأت تتردّد على بيت العجميّ أستاذها في ضرب العود، تتزاور مع بنات يعقوب الصائغ الذي أهداها للسلطان، تودّ زوجته وتعاودها في مرضها، لم تكن إستر الابنة الكبرى ليعقوب تحب اتفاق، بل تغار منها، فوجدت باب شاول الابن الأصغر مفتوحًا على مصراعيه بنظرات الوجد والهيام؛ حتى استغَلّ الفرصة وبثّها غرامه فنهرته، هو أصغر منها بسنوات ويهودي الديانة، نعم لِيئة زوجة يعقوب أخبرتها أن أمها رِفقَة يهودية ومدفونة في جبانة اليهود، لكنها ليست كذلك، أعلن شاول إسلامه؛ لينالها، تزوجَته وعاشت

معه في دارها حتى ماتت، وصلى الناس عليها بمسجد السلطان حسن، وقد أرسل السلطان الظاهر سيف الدين برقوق بن أنس البيغاوي من ينوب عنه في صلاة الجنازة رغم عداوة السلطان لمن سبقه من سلاطين أسرة قلاوون، وقضائه على آخر ملوك أسرة قلاوون الألفي ونقل الحكم للمماليك الجراكسة، إلا أن اتفاق كانت ذات شأن يعجب له الناس، حتى بعدما شارفَت السبعين وبعد وفاتها كل الملوك يقدّرونها، السلطان حسن الذي أنزلها من القلعة بعد وفاة إخوته وتوليه السلطنة والذي كان يراها شيطانة من الإنس، عاد بعد قليل وأعاد لها كل ما تملك، وسمح لها بالحياة الكريمة، بل كان يدعوها في احتفالات القصر وطهور أبناءه.

بعد الدفن والعزاء عاد محمود المصري زوجها الذي نسي أن اسمه شاول، احتضن ابنته من اتفاق التي أسماها سمرة؛ لسَمار جلدها، وقد كانت شديدة الجمال مثل جدتها رِفقة أو عمتها إستر مع بعض من لون أمها اتفاق، فأصبحت كطمي النيل عند هياج النهر.

أخذ سمرة من يدها، أغلق الدار، أوقف تجارته، وذهب إلى بيت ميمونة ابنة العطار سعيد بن ميمون الذي أنجبته جِلنار زوجة الشرْبَتلي الكبير بعد طلاقها منه بلا أب معلوم إلا ميمون كبير المهرجين.

كانت ميمونة من عاشقات جمال شاول في الصغر، وطالما حدثت مداعَبَات في الجزء المظلم من الحارة، هي الآن متزوجة وأم لسبعة أولاد وبنات، أكبرهم مصطفي وأصغرهم سنية.

أسلم محمود أو شاول المال وابنته لميمونة، ثم أحضَر المصحف فحلِفَت له ثلاثًا أن تتولّاها كابنتها، أعطاها ألف ألف دينارًا للبنت وزواجها، وصكّ بيتَ أمها، ثم سبعمائة ألف تنفق منها على سمرة، ومثلهم لميمونة وأولادها.

رحل شاول آخذًا معه صورة لاتفاق رسمها لها الرسام الفارسي طهماز الحسيني الجعفري وهي تحت السلطان الكامل سيف الدين شعبان، طواها بين لحمه وصدريته ملفوفة في قماشة كانت تعصب

بها رأسها، وأبيات كتبَها ابن نباتة المصري في اتفاق لمّا أنزلها السلطان حسن من قلعة الجبل لتعيش بين العامة.

فتح رئيس العسَس اللفافة التي وجدوها في صدرية غريق اللسان، حيث ملتقى النهر والبحر الكبير في رشيد، لا يعلم أحد لمَ نزل الغريب الغريق إلى النيل في تلك الليلة قارسَة البرودة، هل هناك أشقياء قتلوه وألقوا به في الماء؟ أو سقَطَ من مركب مارٍ؟ أم مخمور سقط في غمرة سكرِهِ ولم يجد من يُنجِيه؟

ظن الناس أن في اللفافة ما يكشف سر موته، فلم يجدوا إلا صورة لشابة حالكة السواد ملفوفة في منديل من الحرير به بعض شعيرات بيضاء، وأبيات من الشعر يقول قائلها:

كأنني الشمعُ لما باتَ مُشتعلُ الفؤادِ قال لأحشاءِ الأسَى ذُوبِي

إلَهي فِي حُسْن الرَّجَا لِي مذْهبُ وقد آنَ للرَّاجي إلَيكَ ذِهابُ

سمعان الحافي

جلست رفقة حفيدة سمعان الضائع سائِس خيل الأمير جانشير بريخان أمير طبلخانة المسئول عن البريد الجوي للسلطان الناصر برقوق، وقد تسمّى سمعان بالضائع؛ لأنه تجرّأ يومًا وركب جواد الأمير، ورغم حنكته في خدمة الخيل إلا أن الجواد قد جرى به بعيدًا حتى تاه في صحراء الريدانية ليلتين؛ فأدركُوه قبل الموت في اليوم الثالث، جلسَت رفقة تحاول إقناع أخيها شمشون بالتقرب من ميمونة بنت العطارين وأخيها الضخم سعدون الشيطان، رغم أنهم تعاركوا منذ أشهر قليلة إلا أنهم أبناء أسرة واحدة وحارة واحدة، جدّهم الأكبر هو ميمون الأبله قائد خاصكية السلطان قلاوون غزير الذرية التي تنوعّت وارتحلَت وتغيّرت على مرّ الأعوام وبفعل الأطماع والنزوات والزيجات.

كانت رفقة أخت شمشون ضئِيل الجسد شاحب الوجه، تماثله في الجسد وفي الفقر، وهو رغم ضآلته شبيح يضرب ويعتدي كثيرًا، وقد ضرب سعدون الضخم الذي أسموه الشيطان؛ لأن شعر رأسه أحمر

مهوش، ونظرة عيونه المحمرة من أثر النبيذ تجعله يبدو كالخارج من نار جهنم، وأخته ميمونة صاحبة الشعر الأحمر، والجسد البضّ الممتلئ المرغوبة من كل رجال الحارة رغم أولادها الخمسة، كما ترغب النساء في أخيها الذي لولا قلة عقل فيه مع بعض من جبن لتهافَتْن عليه ورفقة معهن أيضًا، قد حاولت رفقة كثيرًا إغواءه، لكنه غبي لا يفهم الإيحاءات، ولا التلميحات رغم تخطيه الأربعين بلا امرأة، إلا أن غباءه وفقره كانا يبعدان النساء عنه فيما قَبل، والحال الآن تغيّر وأصبح خالًا لفتاة ذات جاهٍ ومال.

جلست رفقة تقنع أخاها أن المصلحة تستدعي المصالحة فينالهم من الحب جانب، وكما يعلم الجميع سمرة بنت اتفاق من جنسهم رغم أنها من ملة أخرى، فما يمنع أن يتودد إلى ميمونة، وأن تتودد هي للشيطان أخيها، أليس هو أفضل من حظّها مع ذلك الحافي؟ هي بنت يهود وأوقعها حظها العسر في ذلك القبطي سمعان الحافي الذي

يمشي في النجوع والكفور يحمل بُقْجتّه(*) على ظهره يبيع ويشتري، ويأتي ليلًا قدمه مشققة من أثر المشي في التراب والطين وبين الأراضي وعلى الجسور، حتى أنها قالت له يومًا: أنتَ بحاجة لحدوة لقدميك، والحقيقة أنه لم يفعل ذلك عن بخلٍ، بل عن ضيقِ ذات اليد، إذ كان يرفض التعامل بالرِّبَا، أما مركوبه الوحيد فكان يدخره لأيام الآحاد والأعياد.

كل ما تريده رفقة بنت سمعان من أخيها شمشون أن يتقرب معها من ميمونة وأخيها، حبّذا لو أمَال عقل ميمونة لتعشقه، أو ساعدها في جذب سعدون حتى تصبح سمرة بنت اتفاق في حوزتهم بذهبها وقصرها وقلبها.

قالت: اذهب إلى سعدون واستسمَحه وقبّل رأسه، خذ معك قنينةَ نبيذٍ معتق حتى إذا راق الحال أحضره إليّ؛ لأُريه ما لم يرَ، ويبقي دورك لتغوي تلك المارقة التي تركت زوجها بعدما جري المال بين يديها.

(*) البُقْجَة: هي الصُرّة من الثياب، وجمعها بُقَجْ.

نفّذ شمشون ما أمرت به أخته، وخرج ليشتري النبيذ ويغوي بنت العطارين.

في الصباح التالي كان سمعان الحافي يجوب الأزقة والحواري مرتديًا جلبابه المرقع، يسير حافيًا وبُقْجتّه على كتفه، والكتف الأخرى تحمل بُقْجة أخرى بها ملابسه التي لا تزيد عن جلباب آخر يلبسه في الأعياد وسروالين ومركوبه الوحيد، لقد غضبَ أمس من زوجته رفقة واتخذ القرار الذي كان يؤجله لسنوات، هو الآن يبحث عن مأوًى جديد، لكن لا يجد من يرضَى بالقليل الذي معه حتى كلّت قدماه؛ فجلس بجوار إسطبل مرجوشي للحمير في عطفة أبو مرزوق بالحسينية.

رقّ قلب المرجوشي لمنظره وثيابه الرثة وهم يعرفون جميل طبعه؛ فأجّروا له ركنًا بالإسطبل على أن ينظف مرود شرب الحمير كل صباح جمعة فوافق، ولكن نفسه العزيزة منعته أن يأكل معهم بلا أجْر، بعدها بأشهر قليلة كان يعمل فيها حمّالًا لدى المرجوشي وانفتحت أبواب الرزق أمامه، معرفته بالناس والطرق والدروب ساعدته على

زيادة عمله ورزقه، وقت اكتمل بناء الخان الجديد الذي بناه الأمير جركس الخليلي القادم من مدينة الخليل، أتى الكثير من تجار الخليل وأقاموا بالخان، اشترى بها سمعان الحافي محلًّا لبيع العطور والأقمشة، ومن كل شيء أسماه خان الحافي وأولاده، شاركَه به محمد سعيد القماش عرّيف كُتّاب سوق السلاح بربع رأس المال، وباقي النصف جمعَه بمعرفته من ذوي الجاه والسلطان.

أما شمشون وأخته رفقة فقد استدرجا سعدون الشيطان قليل الحيلة وتراضوا وشربوا، وعزفَت رفقة ورقصَت كما لم ترقص حتى أُسقط في يده، ولما دخل سمعان عليهم في الصباح وجدهم نائمين في أماكنهم من أثر الشراب، وبعد أن أخذ قليله ورحل دخلت الشمس فلسعتهم بنيرها، وكان الصحو ثقيلًا وعيونهم بها من أثر النعاس، لكن رفقة كانت أسعد الناس؛ حيث قالت لسعدون: أخاف من الفضيحة، وتحدثوا عن شركة في دكان بالسوق الذي يريد الأمير الخليلي بناءه، وأن يقنع أخته أن تدخل شريكة بمال الصغيرة سمرة

فنحفظ لها مالها ونربيه، ونأخذ نصيبنا؛ فنحن العاملون على المال وتربية البنت وحفظِ حقوقها، كما أننا ذوي قرابة من قديم.

كان الخان الذي اشتروه ملاصقًا لدكان سمعان الحافي وشريكه عرّيف الكتاب، أسموه خان الاتفاق الميمون، وكانت بضاعتهم هي الذهب والأحجار الكريمة.

لم يمنع بُغض سمعان الذي لم يصبح حافيًا لأفعال زوجته رفقة من استمرار عشقه لها، لكنه لم ينسَ أيضًا أنه ترك ملّته بسببها ودخل في ملة أخرى حتى يتزوجها؛ فازداد حنقه عليها.

بغداد ودمشق

اعلموا أنّا جند الله، مخلوقون من سخطه ومسلّطون على من حلّ عليه غضبه، لا نَرِقّ لشاكٍ ولا نرحم عبرة باكٍ، قد نزع اللّهُ الرحمة من قلوبنا؛ فالويل كل الويل لمن لم يكن من حزبِنا ومن جهتنا، قد خرّبنا البلاد وأيتمنا الأولاد وأظهرنا في الأرض الفساد، وذلّ لنا أعزّتها وملَكنا بالشوكة أزقّتها.

ثم أكمل الرسول رسالة تيمور لَنك إلى الظاهر برقوق، كان برقوق ساهٍ شاردٍ والرسول يقول: وذلك لكثرة عددنا، وشدة بأسنا؛ فخيولنا سوابق، ورماحنا خوارق، وأسنتها بوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجياد، وجيوشنا كعدد الرمال.

رفع السلطان يده في وجه الرسول أن كفَى؛ فسلّم الرسول الرسالة إلى الحاجب وعاد إلى المنزل الذي أنزلوه به حتى يحين الرحيل بالرد.

وقفت سمرة بين عمتها ميمونة، وجارتهم زوجة تاجر الغلال أم جميلة ومصطفى الذي يكبر سمرة بخمسة أعوام، وقف ممسكًا يدها؛ حتى لا تضيع في الزحام، سمرة سعيدة أنها تخلّصت أخيرًا من كابوس شالوم الذي فتحت عيونها على الدنيا وهو شريكهم مع أخته رفقة، تخلصت أخيرًا من تلك الشركة والعلاقة المشئومة التي استمرت عشرة سنوات ويزيد، هي لم تكن تفهم فيما قبل، ولكنها بدأت تفهم الاختفاء المزدوج في الليالي التي يأتي فيها شالوم وأخته، كانت تبقى وحيدة للصباح، تسمع أصواتًا غريبة وقرع كؤوس وغناء.

كانت سمرة تظن أن ميمونة أمها حتى أبلغتها فاطمة الابنة الوسطى لميمونة أنها ابنة اتفاق الجارية العجوز، بكت سمرة كثيرًا تلك الليلة وأصرّت على زيارة قبر أمها، رضخَت ميمونة، ولكنها لم تنسَ أن تضرب فاطمة ضربًا مبرحًا بعد العودة من المدافن بحجة أنها كسرت الإبريق.

ضرب الرعب قلوب أهل المحروسة مع اقتراب تيمور لَنك وجيشه من بغداد وأنباء فعلِه في القرى ودمشق، قتلِه كل رجلٍ أو طفلٍ أو امرأةٍ، وكيف أن الشيوخ وضعوا الأطفال في طريقه؛ ليرق قلبه فقتلهم وقتل الشيوخ، لم تُبقِ قواته حائطًا يظلّل من الشمس في كل المدينة، كان يأمر الأسرى بقطع رؤوس القتلى، وصُنعِ منهم سبعين برجًا من الجماجم، ثم قتل الأسرى.

حين وصلت تلك الأنباء قبل مجيء رسول هولاكو بالوعيد إلى سلطان البلاد الأشرف برقوق الجركِسي، كان الجواب مُرعدًا مُزبدًا، لكن ذلك لم يرفع الرعب من قلوب الناس، توقفت حركة البيع والشراء، وكسدت البضائع في المخازن.

في صباح يوم العيد وَجدَ سعدون وميمونة الخان فارغًا من كل الذهب والجواهر، وقد اختفَت رفقة وشمشون أخيها للأبد.

عاش سمعان الحافي يائسًا بعد أن كان يراها كل يوم بل وتستفزه بحركاتها النسائية ومُجونها؛ فيقضي الليالي الطويلة يناجي طيفها،

ويناجيها أي العاهرة حتى تروي ظمأه، يغفو ويصحو مبلّلًا فراشه بدموع الندم إلى الرب، لكنه الآن أصبح وحيدًا بلا امرأة تحبه أو تكرهه، أو حتى تكويه بنار عشقها.

بعد رحيل رفقة بأشهر قليلة باعَ سمعان نصيبه في الخان واختفى، لم يسمع به أحدًا من أهل الحارة والخان بعدها.

طاف المنادون بالأزقة والحارات معلنِين أن الملك العظيم برقوق يعدّ جيشًا يؤدّب به الكافر السفاح تيمور لَنك، تجمّع الناس ومن جَبُن جلس، ومن تجرأ خرج وانضم لحملة التأديب.

أخبار ما فعل تيمور الأعرج فى بغداد جعلَت الناس لا تخرج من بيوتها لثلاث، حتى ذلك اليوم الذي وقفَت فيه سمرة بين ميمونة وأم جميلة، طمأنتها يد مصطفي حينما دفأها بيديه الحانيتين، مفتونة في سنها الصغير بمصطفى ابن الرابعة عشر، وهو مفتون بالشعر وجلسات الشعراء، ترك تجارة أبيه في الغلال عند باب الوزير؛ ليلحق بالشعراء، يسير خلفهم ويجلس بينهم في مجالس لهوِهم فيهتدي بهداهم.

ارتفع الصياح، ها هو مولانا عائدًا من الغزوة يدخل من باب النصر والأهالي يلقون حول موكبه الورود، وجنوده يلقون الدراهم؛ لتطَأطِئ الرؤوس لحظة وصوله فلا تلتقي الأعين، ويبقى سر قوة السلطان في جب سحيق من الرهبة والإعزاز، ويقول قائلهم إن قامته أعلى من

أهرامات المساخيط بالصحراء، والآخر يقول إن القدماء جعلوا له تمثالين في أحد كهوفهم فتسقط الشمس علي وجهه يومان بالسنة في صعيد مصر؛ فهو مذكور عندهم في رؤى العرّافين، وأن السلطان برقوق هو من قال فيه أحد أتباع فرعون ما قال من مدح وإيمان بالله فيه، لم يدخل برقوق مسجده ولا قصره حتى زار قبة الملك الصالح التي أنشأتها له شجر الدر وقرأ فيها الفاتحة، ومن عظيم فرحته عرج إلى مسجد السلطان قلاوون، ومسجد السلطان محمد بن قلاوون، قرأ لهما الفاتحة والناس تكبّر، العسَس يضربون من يقترب، وساد الهرج، وعمت الفرحة؛ فبكى الرجال قبل النساء.

رفع مصطفى سمرة فوق كتفيه فانتشت، وامتلأت سرورًا وهو ينشد:

بأبِي أنتِ حلوةَ الرّيقِ لكن أنا مِن لَسعَةِ الجَفَا في بَلِيّة

فيكِ شهدٌ وفيكِ لَسعٌ فرِفقًا بشجيٍّ أمسى وأنتِ خَلِيّة

ظنته سمرة شعرًا فيها، حتى لكزَته أمه وقالت: اهتف باسم السلطان يا عويل، اترك هذا الشاعر المخبول واترك شعره؛ فقد هلك قبل أن تولد وأصبح جيفة، كانت تعلم أنها تغضبه عندما تسبّ ابن نباتة

أستاذه الذي لم يره؛ فأنزل سمرة ورحل مغاضبًا مشيعًا بضحكات أمه وميمونة وسمعان الحافي، عدا سمرة التي جلست فوق التراب تبكي.

دخل السلطان برقوق قلعة الجبل منتشيًا بعد هروب تيمور، الكافر مدّعي الإسلام، انتصر برقوق دون قتال وترك خلفه جيشًا يسعى خلف تيمور لَنك؛ ليطرده من أراضي المسلمين.

بعودة السلطان وعسكره زاد الغلاء فما لم يكفي الناس وحدهم في الغلاء زادت أسعاره بعد زيادة المقيمين بالبلاد، ورغم الغلاء سعدت ميمونة والحافي؛ فقد يعوّضون ما نُهبَ منهم وضَاع.

باع الحافي الخانَ بعد سداد الديون ثم ارتحل، من الناس من قال: إنه عاد لبلدته فرشوط، ومنهم من قال: إنه زهد الدنيا، وصعد الجبل ليعيش في المغارة التي هرب إليها القديس سمعان الخراز بعدما نقل الجبل ليصبح قديسًا بعدما كان إسكافيًا يرقّع النعل والجلد.

بعد ليال من أوامره بغزو الصين وقع تيمور لَنك داخل خيمته وأصبح لا يدري شئون جيشه، مزجُوا له الأشربة المخلوطة بتقطير الخمر ووضعوا الثلج على صدره وبطنه في أشد أيام الشتاء برودة، صار يتقيأ دمًا ويرجو كل من حوله أن يعطوه ما يمنع الألم، صار يتلوَّى في فراشه ويسقط على الأرض، ثم يرفعوه فيسقط طوال ليال يلعن ويسبّ حتى حشرج، وصعدت روحه غير مأسوف عليه بعد أن قتل الملايين من المسلمين، خاصة رغم ادعاءَه الإسلام على شيعة عليّ والحسين.

منذ سنوات مضَت كانت سمرة تجلس لتسمع مصطفى وهو يتحدث، يحلّل الأحداث لمن حوله بالدار وكانت طفلة مفتونة به، أما الآن فهو المفتُون بها؛ فقد قاربَت الثامنة عشر وأصبحَت في طور النساء، واستدارت واستطابت، فسلبته اللّبّ والبصر، هي التي طالما سهرت ليالٍ في حبه تهيمُ به، الآن نسيَه قلبها وأصبح كالأخ أو الصديق وتبدّل الحال، أصبح يسهر الليالي؛ ليقول فيها شعرًا ونثرًا، يبعث

الرسائل واضحة البيان وغامضة اللسان، لكن لا رد منها إلا الصمت.

كانت الليلة الأخيرة التي أنسَت سمرة حبها يوم وقفت معهم على أبواب القاهرة يودّعون سلطانهم برقوق إلى مثواه الأخير، كان مصطفى واقفًا جوارها وعينه لا تفارق أم مسعود الدلالة وابنتها صفية، ليلتها تلصَّصت من نافذة المنزل على حجرة مصطفى، سمعَته هو وصفيّة وتيقّنَت من خيانته لها، اعتبرته خائنًا لحبها رغم أنها كانت تعلم أنه لا يرى فيها إلا طفلة.

النَاجرةَ زوجةَ الشَاعر

ذهَبت سمرة إلى خان الخليلي ووقفت على تجارتها، سألت وتعلّمت وعاشت في التجارة والبيع والشراء، غيّرت اسم الدكان إلى خان سمرة للذهب واللآلئ والعطور، زادت تجارة العطور الغالية إلى تجارتها وكسبت منها الكثير؛ فأصبحت من أغنياء المحروسة، وصلَت هداياها إلى السلطان فرج بن برقوق الذي أكرمها وتاجر معها وأوصى بها رجاله، كانت سمرة تعرف أن السلطان لا يكرمها لأجل أمها الملكة السابقة ولا الهدايا، بل يريد منها ما فوق ذلك وعينه لا تسقط عنها، هي تعلم أن أفضل تاجر هو من لا يسلّم قيادة طواعية للملوك؛ فهم يتغيرون، أما التجارة والمصالح فلا تتغير.

أصبح مصطفى الآن على أعتاب الخامسة والعشرين، لم يتزوج فأصبح حديث الحارة والسوق، ولكنه لا يفعل إلا أن يهيم بحثًا عن سمرة طفلة الأيام الخوالي ويعضّ أنامل الندم، لكن سمرة ورغم نسيانها العشق القديم فإن بقلبها بعضًا مِن تعلقّ بمصطفى جعلها توصي به حاجب السلطان، وأنه شاعر يملك ناصية الكلام.

كانت سمرة تحلم بأن تُعيد مجد أمّها اتفاق في فتنة الملوك، لمَ لا وهي أشد سحرًا وجمالًا؟ تُلقي الأشعار وتضيّق الإزار، تَدهِن بالطيب والمسك وتُطلقُ البخور والعود أينما حلّت، وتملك من المال الكثير، وليست بالجارية ولا المهداة، وليست بالمباعة ولا المشتراة.

إلا أن الملوك في أذواقهم ليسوا سواءً، ومعظم السلاطين يفضلون الإماء والجواري، إن رأى الرجل امرأة تدانيه هجر ودّها؛ فهو الملك في الدار، فما بالك بسلطان المسلمين ونائب الخليفة، أو هكذا ظنّت سمرة عندما وجدت الجفاء من السلطان فرج، ولم يدرِ بخلدها أنه جُبِل على الفظاظة وما راق له مجلس إلا مجالس اللهو والشراب، وأنه لا يقول طيبًا إلا عندما يكون فاقدًا للعقل بعد الشراب وقبل الْتِئَام الشمل على الفراش فتدير الكؤوس عقله، وتسلب الكواعب لبّه، وتُلينُ ما تحجّر من قلبه.

أما مصطفى فقد ذاع صيته وانتشرت أشعاره حتى انتفخ كالطاووس، وأدارت رأسه الظنون؛ فاستعلى على الناس بشعره، وأصبح من المقربين المرفوعين، في حين أُبعدت سمرة عن مجلس السلطان بأمر

زوجته ومكايدها، وبدأ القحط والبلاء والغلاء والطاعون؛ فبارَت السلع وبدأ الناس يأكلون الحشائش، ثم القطط والكلاب وجيفة الميت، بدأ المرض يسري في الأبدان كسريان النار في الهشيم، والسلطان يسمع مصطفى وشعره مع رقص الغواني وكؤوس الشراب، حتى عبد العزيز أخاه لم يرُق له؛ فحبسه وتركه سجينًا إلى أن أفاق يومًا على صوت مصطفى ينعق في الديوان أن تيمور لَنك عادت له الشجاعة لمّا علم بأن المَلِك ساهٍ لاهٍ، وأن المؤامرات تكاد تأكل السلطنة من داخلها.

في الليلة التاسعة والخمسين من مهلكِ السلطان فرج بن برقوق وضعَت سمرة ابنتها التي أطلقت عليها اسم أمها اتفاق.

هلك فرج بن برقوق حين انتظره الأمراء وهو خارج في موكبه ثم هاجموه بعد أن تنحّى عنه حراسه، انقض المماليك عليه وقد أقسموا بالعهد للخليفة العباسي بموافقة القضاة، قبضوا عليه وخلعوه ثم عيّنوا مكانه الخليفة العباسي المستعين بالله حتى يرَوا له بديلًا منهم، قتلوه وظلّت جيفته بالعراء ثلاث ليالٍ حتى فاحت رائحته؛ فدفنوه دون كفن ولا صلاة.

فرج الذي كان نذير شؤم لأبيه الذي أسماه بلفاك فكان خلعُ أبيه السلطان برقوق يوم وُلد، ويوم استطاع أبوه أن يسترد العرش أسماه فرج، لكن الناس لم تنسَ أنه شؤم لأبيه ولهم؛ فأسموه وجه البومة حيث غلت الأسعار، وضرب القحط وكسدت الأسواق وضربهم الوباء، ثم تجرّأ تيمور لَنك على غزو دمشق فبقي لا يحرّك ساكنًا، ثم أمر بالخروج؛ ليحمي نفسه، خان السلطان العثماني بايْزِيد ومماليكه الذين دافعوا عن دمشق في انتظار المدد حتى دخل عليهم العدو

بالحيلة، كما لم تقُم لدمشق قيامة سنوات وعقود بعدها؛ فقد دمرها المغول كما دمروا بغداد وأكثر.

أكل الناس القطط والحمير وأوراق الشجر، وقضى الوباء على قرابة النصف من الأهالي، وعندما رأَوا مهلكه وتولي المستعين بالله هلّلوا رغم علمهم أن المستعين ليس بأفضل من الناصر فرج، فليس هذا ناصرًا ولا فرجًا من الغم، وليس ذاك مستعينًا بالله ولا ذا فضلٍ، لكنه الغِلّ والجوع فرقصوا وغنّوا، إلا سمرة التي كانت تئِنُّ في مخدعها فلا القابلة ولا النساء، ولا حتى زوجها الشاعر مصطفى يدرُون ما بها، هل هي حُمَى النفاس أم الوباء.

في صبيحة اليوم التالي والخلق نيَام صعد مصطفى إلى القلعة؛ ليقدم التهاني للمستعين ورجاله ويحثهم بشعره على الانتقام من رجال بن برقوق وتيمور لَنك، ترك سمرة تحتضر في كمدٍ؛ فهي تموت في ريعان الشباب تاركةً ابنةً وزوجًا، لا تدري هل هو من أحبته؟ أم تبدّل بغيره بعد عشق وهوى؛ ليصبح الكره سيد البيت بعد أقل من عام على الزواج؟ هي حقًا نسيَت هواه قبل أن يتزوجها، وطمعَت في الوصول

لقلب السلطان مثل اتفاق أمها، حلمَت وتمنت، لكن السلطان متحجر القلب وطوع زوجته التركمانية، أبعدَها عن مجلسه وقرّب مصطفى الشاعر الذي أوصَت هي به، ومصطفى لا يشعر بها وأتى لها بعدما زهدَته، تزوجَته فقط إرضاءً لغرور نفسها وليكون سلّمًا في قصر السلطان، وها هي تهلك ليلة مهلك السلطان وتترك الرضيعة اتفاق في عهدة أبيها مصطفى، اتفاق التي أخذت منها طابع الحُسْن، وأخذت من أبيها شعره المجعّد، ومن اتفاق الجدة اكْتِناز الشفاه، ومن جدتها رفقة البشرة الرائقة والعيون الخضراء والشعر البني الكثيف.

ضمتها إلى صدرها ونادت مصطفى ولا مجيب، حاولَت أن تلقمها ثديَها بلبن السرسوب، لكن اللبن أبى إلا أن يبقى غائرًا في صدرها لا يطفئ ظمئًا، خلعَت سمرة سِوارَيْها ووضعتهما في قدمي الصغيرة، ثم راحت في سبات عميق لن تفهمه الصغيرة إلا عندما تشبّ عن الطوق وتسمع حكاية ست الحسن أمها سمرة.

أما تيمور لَنك فقد ترك دمشق بعد أن أقام بها ثمانين ليلة ما بين حرق وإغراق وقتل؛ حتى تحوّلت دمشق إلى قطعة من جهنم، ثم ارتحل إلى الصين؛ ليغزوها ومات غير مغفورًا له، ولا مرجوًا في ذريته الخير.

لم يبقَ لاتفاق الصغيرة إلا أبيها بعد أن فنيَ جميع من لهُما في الوباء، وفي السنة الثانية عشرة من ميلاد اتفاق الصغيرة أراد مصطفى الخروج هربًا من السلطان الخليفة الذي كان ماجنًا كسابقه ابن برقوق فى عشق المعتّق من الخمر والكواعب من النساء، وعلى العكس من ابن برقوق قاسيَ القلب متحجره، كان الخليفة ليّن الطبع للنساء ورجاله وخدمِه غليظًا على غيرهم، وفي زلّة لسان من شِعرِ مصطفى أُمِر بالقبض عليه ففرّ بابنته في طريق الشام، لكن عسكر الخليفة أمسكوا به عند أسوار بعلَبِك فقطعوا لسانه وأعادوه للسلطان الذي أمر بتعليق رأسه على باب زويلة ثلاث ليالٍ؛ ليرى الناس جزاء التطاول، وأمر بمصادرة أملاكه وانتهاك حرماته وحريمه.

بِيعَت اتفاق كجدتها في سوق الرقيق بأقلّ من أربعمائة درهم إلى المعلم رستم من أزمير، وهو بدوره سلّمها إلى رجاله؛ فباعوها لدار الأمير محمد جلبِي الذي أصبح فيما بعد السلطان محمد الأول سلطان الدولة العثمانية.

اتفاق الجارية

أصبحت اتفاق بنت الشاعر مصطفى ابن أم جميلة، وابنة سمرة بنت اتفاق الجارية المِلكة في منزلة الجاريات الولّادة للسلطان محمد الأول سلطان الترك العثماني، أتاها السلطان وهي بنت الخامسة عشر وأنجبت له توأمًا، بايزيد وجانكير، لكنها لم تتمتّع بهما كثيرًا؛ فمن عادة الملوك العثمانيين أن من يملُك يقتل كل أخوته فقتلهم السلطان مراد من بين من قتل مِن أخوته، ثم نفَى اتفاق إلى أدرنة، إلا أنها قد نالت حريتها أخيرًا بعدما أنجبت الولد.

لم يعلم السلطان مراد أنها تحمل في أحشائها طفلًا لأبيه، لكن لن يكون من عائلة السلطان، ولن تُقام لمولده الحفلات؛ فلن يولد إلا في حمص.

تحيّنت اتفاق الوقت المناسب؛ فخرجَت مع قافلة متجهة للشام بمساعدة جاريتها جولشام ووصلت إلى حمص، عاشت بين الناس هناك وتزوجّت من صاحب المسافر خانة تَرى من يرِد ومن يرحَل، فتجد فيهم الحزين الباكي، والسعيد الضاحك.

أنجبَت اتفاق لمسعود صاحب المسافر خانة خمسة من العيال كلهم ذكور؛ فأصبحَت ذات عزوة، وابنتها خديجة التي هي ابنة سلطان الترك أصبحَت ذات قوة ومنعة بأخوتها الذكور، حتى أتَى اليوم الموعود وكان لابد أن تتزوج خديجة؛ فطرق الرجال الباب، راغبين بجاه عمها زوج أمها وثروته، وكذا جمالها الأخّاذ للعرب والعجم من المسافرين والعائدين، واتفاق ترفض حتى بلغت خديجة العشرين، وهي مازالت لا ترضى لها زوجًا إلا من الملوك.

في ليلة رأت اتفاق أن النار تأكل قدميها وهي جالسة على تَختِ السلطان فقامت فزِعَة، تعوّذَت وتوضأت ثم صلت ركعتين وقبِلَت بأول خاطب لخديجة وهو ابن قائد عسكر حامية العريش فزوجَتها إياه ورحلت معهما إلى مصر؛ فاستقرت خديجة مع زوجها هناك، ورحلَت اتفاق إلى حيث استأجرت دارًا أمام ضريح سيدنا الشهيد سعدون؛ لتتبارك به بعد أن سمعَت عن كراماته، وكيف أن حجرَته تضيء دون زيت في ليالي الجمعة وطوال ليالي رمضان، وأن الضوء

المشع منها يكون موصُولًا إلى عنان السماء بلا انقطاع في ليلة القدر.

عاشت اتفاق على أمل أن ترى انهيار مراد الثاني، ويوم علمت أنه مات أطلقت زغرودة سقطَت مغشية عليها بعدها، كانت خديجة قد بلغَت الثلاثين ولها من العيال ثلاثة؛ سعدون وميمون وزينب.

في أحد الصباحات عندما بلغَت زينب الثالثة عشر خرجَت اتفاق بعكازيها، أخذت زينب وأخويها إلى مربط جمال القوافل، وقالت لهم: إن جدّكم الأكبر هو السلطان محمد بن بايزيد، وإن السلطان مراد طردها وقتل بنِيها إلا أمهم، وقد فرّت بها وهي في أحشائها مازالت، ثم أركبتهم، وقالت: لا تعودوا إلا بحق جدكم وأخوالكم، ثم أجزَلَت العطاء للحادي.

كانت اتفاق تعلم أنها تضع أحفادها في مرمى النيران، ولكن عهدًا اتخذَته ودبّرت الأمر بليل، فعادت هادئة البال مطمئنة بعد أن ختمَت كتف كل منهم بخاتم الملك محمد الأول، وقالت: لا يراه منكم أحدًا إلا السلطان.

كانت تلك الحادثة بمثابة الرسالة الأخيرة لها في الدنيا؛ فقد دهسَتها الخيل بعدها بثلاث وهي ذاهبة تلقي السلام وتقرأ الفاتحة لضريح ومقام سيدنا الشهيد سعدون، رأت اتفاق ليلتَها منامًا طيبًا كانت فيه عروس في فستان الزفاف، والسلطان محمد فاتح للقسطنطينية يعقد قرانها على جده.

وكما هي الأحلام أضغاثًا تأتي الحقيقة بما لا تشتهي الأنفس، فلم يدُر بذهن اتفاق أن يقتُل قائد حرس السلطان الصغار، وكيف لاتفاق وهي الجارية أن تعلم أن الكرسي أهم من الدم والنسب، رغم علمها أن عادة سلاطين آل عثمان أن يقتل السلطان أخوته حتى لا ينازعونه العرش(*)، وقد أتى المفسرون للكتاب بشرعية ذلك، لكنهم ليسوا بإخوة للسلطان ولا ينازعونه شيئًا، لكن من عادة الملوك ألا ينتظروا احتمالات التهديد فهم السباقون على الدوام.

(*) لا يزال السجال دائرًا بين المؤكدين لحقيقة قتل سلاطين آل عثمان لإخوتهم، وبين من يدافع عن آل عثمان بقوله إنها افتراءات الغرب.

عندما وصل الأخوة الثلاثة إلى بورصة وحاولوا الوصول لصاحب الجلالة المبتهج بنصره وبفتح القسطنطينية كتموا أمرهم خوفًا أن يقتلهم الحاسدون، لكن قائد حرس السلطان نفسه بعد أن تأكد من هويتهم أمر الحراس الصمّ البكم بقتلهم بحبال من حرير، إلا زينب التي أُهديت للسلطان المملوكي الملك سيف الدين أبو النصر إينال بن عبدالله العلائي الظاهري الناصري، لكنها ماتت بالحمى في طريق العودة إلى المحروسة قبل أن يمسها السلطان إينال، قال البعض أنها ماتت بالسم الذي دسته لها إحدى جواري السلطان الفاتح الولّادات خوفًا أن يحن إليها؛ فتنجب له، هي قريبته من دمه وليست جارية وإن تبدلّت الأحوال.

لم يأت لخديجة وزوجها وما بقي من ذريتهما ذكر بعد دهسِ الخيل للمرأة عند المقام.

البضاعة المزجاة

أنا الجارية، أنا الدخان الذي لا تبصره العيون، والهمسة التي لا تصل للآذان.

أنا اتفاق الابنة الوحيدة للتاجرة سمرة زوجة الشاعر الذي أسقطه لسانه في جُبّ الذبح، قطَعُوا رأسه وعلقوها على باب زويلة تكفيرًا عن ذنبه مع أمي التي ماتت وحيدة لم ينقطع خلاصها منّي، بقيتُ للفجر ملتصقة بها حتى أتَت المغسلات؛ فقطعوا ما بيني وبينها لأحيا وتموت.

أُدخل عليّ السلطان العثماني وحريمه فأراهم في المخدع ولا يرونني، تضع يدي الطعام والشراب، وتنحني قامتي متقهقرة فيفتح الحراس الأبواب، أعود لموقعي بين الجاريات الشغالات، أناجي أبي الذي غدروه وأسروني بضاعة لملك الترك، يومها ربطوني في ساري السفينة ولم أذُق الطعام حتى الصباح، أراد ابن النخّاس أن يطأني وأنا مربوطة إلى السارية؛ فضربه أبوه حتى لا تفسد البضاعة، قبل الوصول للمرسَى حمَّمُوني وألبسُوني الجديد من الثياب، ثم أطعموني العسل

واللبن بالتمر؛ فعادت اللمعَة لبؤبؤ عيني وإن بقي بها انكسار العبودية.

ضحكَ رئيس السفينة وقال سيشتريها الأمير محمد جلبي بالمال الكثير حبًا لنظرة الذل هذه، وتحقّقت مقولة الرجل بعدها بسنوات، بقيتُ خادمة بالقصر لسنوات ثلاث حتى أصبح الأمير سلطانًا.

لمحنِي سلطان العالم لأول مرة وأنا أضع الشراب المخدر لزوجته بأوامره حتى تنام ويختلي بخليلته الجارية التترِية، هو سلطان العالم كما يسمونه، لكنه يهاب الزوجة أم الأمير الصغير ولي العهد.

ليلتها فقط رآني السلطان محمد الأول فوطأني وأنا بملابس الخدم، أصبحتُ الجارية المفضّلة وأم الأمراء الصغار، أنا التي لم تتزيّن لسلطان ولم تذهب لحمام.

في الصباح أهداني خاتمًا من الألماس وجعلني المقرّبة، وعند قدوم التوأم وهبَني قصرًا في أدرنة، أصبحتُ صاحبة الأمر في القصر ومدبرة الحَرَملَك، كنت آمر وأنهي، أمنح وأمنع، فعاشَت في سيرة جدتي التي حكتها لي خالتي نفيسة الجارة التي ربتني وكانت تمشط

ضفائري وهي تنظر لأبي من طرف خفيّ، لم أكن أعرف أنه عاد إلى بنت الدلالة وأن نفّوسة هي همزة الوصل، نفّوسة التي كانت تعطي أبي أخبار زوج صفية ونزواته مع المنزول في حارة الغوازي، يخرج أبي متخفيًا بعد أن يظن أنّي نائمة، فيذهب بريح عطرة ويعود بالمنزول في عرقه.

يومًا سألني السلطان: ما بكِ مختلفٌ عن الأخريات؟ قلت: لا أدري، لكن لي جدة تزوجّت ثلاثة ملوك ووزير.

ضحك عاليًا وقال: اتفاق السوداء هي جدتك إذًا، قلت: نعم، وأنا بنت سمرة ابنتها التاجرة، فأكمل: وبنت مصطفى الشاعر الهارب، قلت بل الشاعر القتيل.

قال: أو الشاعر الذي لم يحفظ لسانه.

لمح دمعة في عيني فمسحها، وأعلن في القصر أنه سيعتقُني غدًا، ويتزوجني كامرأة حرة. وفي الصباح وجدوه ميتًا في فراشه.

تلك الليلة نمتُ سعيدة بعتقي وزواجي من السلطان، هو الوحيد الذي رآني وسمع همس الدخان المخفي عن العيون، ليلتها ورغم فرحي الشديد رأيت جدتي اتفاق في منامي تصرخ وتولول، ورأيت أمّي سمرة تبكي على قبر أبيها شاول، أخذتُ أهرول ثم أركض؛ فرأيت رأس أبي

معلّقة على ساري سفينة تتساقط عليها الأمطار بلون الدم.

في قمرة المركب وهم يستعدون لإنزالي ببر الشام، كان الولد يضرب في بطني، وكنت أسمع صوته عاليًا؛ فأضع يدي فوق سرّتي حتى لا يسمعون فيقتلونني ويقتلوه.

وضعتها في الشام، كانت بنيّة مثل البدر، فرحتُ بها وأسميتُها خديجة، وتزوجت أنا وتزوجت خديجة، لكن السلطان لم يمُت في خيالي والحلم لم يمت.

كنت أريد ان يسمعوا صوتي ويرونني، أنا السلطانة أم الأمراء ولن أكون شبحًا بعد اليوم، سيقف العبيد مطأطئ الرؤوس وكأنهم

يسجدون، تمرّ زينب حفيدتي وأخويها فيكون الأكبر سلطانًا للعالم، والثاني هو الوزير الأعظم لأخيه، أما زينب فسأزوجها بابن قائد جند الإنكشارية.

ليلة هلاك مراد أتاني السلطان يضحك، فصحَوتُ وأخذت الولدين والبنِيّة، ودفعتُ كل ما ادخرت لتلك الليلة؛ فقد أتاني خبر موت السلطان مراد وخلفه ولده الفاتح، فهل يضنُ على أبنائي بولاية أو رياسة.

لم أكره أحدًا مثل مراد، هذا القاتل المتغطرس، وفرحتُ كثيرًا عندما أتاني خبر موته، وتوضأت وصلّيتُ ركعتين شكرًا لله، ختمت أذرع الأولاد بختم جدهم السلطان محمد الأول، ودّعتهم عند مربط الإبل وأوصيت بهم قائد الركب، أجزلتُ في العطاء للحراس والحادي.

عدتُ في طريقي وكأني أطير، عندما أصل سأقرأ الفاتحة لمقام سيدي الشهيد سعدون الظاهري.

يوحنا في قلعة السلطان

تزيّنَت حواري وشوارع الإسكندرية للقاء السلطان في زيارته الثانية منذ أن اعتلى العرش، السلطان القوي مؤسس الجيش العظيم وحامي الديار كان يدرك أن دولة العثمانيين تطمح إلى ما تحت قدميه، وخاصة بعد أن تقاعَسَ السلطان برقوق عن نصرة سلطانهم بيازيد بن مراد الأول أمام جحافل تيمور لنك، وتركه يموت كمدًا، سجينًا في أغلاله، وأسيرًا لدى عدوهما المشترك.

لم يكن السلطان الملك الأشرف أبو النصر سيف الدين قايتباي المحمودي الظاهري يخشى فقط سطوة السلطان العثماني محمد الفاتح وطمعه في أرض الخلافة العباسية، بل أيضًا طمع الأوربة في بلاد المشرق بعد أن سقطت غرناطة وهو لا يحرّك ساكنًا، حتى بعد أن استنجد به الأهالي ومَلِك المسلمين بالأندلس، اكتفى بجمع رؤساء الكنائس في الشام وأبلغهم أنه لن يصمت على ما فعله أبناء ملّتهم في الأندلس، وانتهى الأمر إلى لا شيء؛ فهو بحكم حِنكَتِه وعمره المديد في الجُندِيّة منذ أن كان عبدًا مملوكًا، جلبه محمود بن

رستم وهو في الثالثة عشرة من إقليم القبجاق على نهر الفولجا، وباعه للسلطان الأشرف برسباي بخمسين دينارًا، وحتى عهد السلطان جقمق الذي أعتقه وجعله جمدارًا ثم خاصكيًا ودوادارًا حتى وصل إلى أتابِك عسكر الجيوش، وتسلطَن بأمر القضاة الأربعة والمماليك وهو يبكي ويفرّ منهم خوفًا من غدر المماليك بعدما بلغ الخامسة والخمسين من عمره.

لكل ما سبق اهتمّ قايتباي بشئون الجند والتسليح وولاء مماليكه، حتى أنه لم يشارك في أية حروب خارج حدود سلطنته، واهتم بالقلاع والحصون؛ لتأمين ملكه من غدر الغادرين.

في ذلك الصباح المبارك قُرعَت الطبول ورقص الغوازي والمهرجين ابتهاجًا بوصول السلطان؛ لمشاهدة قلعته العتية على شاطئ بحر الإسكندرية.

خرج الناس يحيّون موكب السلطان، وينتشرون لالْتقَاط الذهب والفضة المتناثرة فوق الرؤوس، ويتحلقون حول موزعي حلوى أم علي الطيبة المذاق الغارقة في العسل واللبن، رغم ما اشتُهر به

قايتباي من بخل فرفع الزبيب والمكسرات من الحلوى ومزج عبيده اللبن بالماء وقلّلوا العسل، لكن الناس في حاجة بعد أن وسع السلطان في البناء وزادت الضرائب وأثقلت كاهلهم.

بعد أن انتهى السلطان من زيارة قلعته الجديدة أقام احتفالًا كبيرًا حضره أكابر وأعيان الإسكندرية كان من بينهم يوحنّا اليهودي كبير تجار الذهب بالمدينة، وجلس يوحنّا تحت قدمي السلطان، سلّم له مائة ألفٍ من الدنانير الذهبية تقدمةً من تجار المدينة ومساهمة في بناء الحصن الذي تكلّف ألف ألفٍ وسبعمائة ألف دينارًا.

يوحنّا اليهودي -وهذا لقبه- من جد نصراني وجدة يهودية، وهو حالة من الحالات الفريدة التي حدثت في عهد السلطان برقوق، انفصَل التاجر النصراني وزوجته اليهودية بالحياة وبتجارتيهما بعدما أنجبا أمه ليئة التي تزوجت من بني ملتها يهوديًا صائغًا بالإسكندرية، رغم مسيحية أبوها إلا أنها تربية وتعليم أمها بعد أن ترك الأب تجارته وتركهم إلى حيث لا يعلمون، لكن الناس مازالت تعلم أنها بنت سمعان الحافي الذي فرّ من عهر زوجته وأخيها إلى مكان مجهول.

قبل أن تلد ليئة لزوجها يوسف بن صاروفيم جاءها الحافي بالمنام، قال: هو يوحنَا؛ فقامت من فورها وأسمته يوحنا ببشارة أبيها سمعان الحافي وسط استهجان الطائفة من اسم هو عدو لهم منذ عصور ولّت، رغم أنه محسوبٌ من أنبياءهم، لكنهم عادوه وقتلوه ويحسبونه على المسيح وصحبته، أسماه المصريون، نصارى ومسلمون، يوحنّا اليهودي؛ ليفرقوه عما يطلقونه على أولادهم من أسماء بين يوحنا ويحيي.

يوحنا منذ أن تفتحَت عيونه على عالم التجارة وجد أمه تحتفل بالأعياد الخاصة بالمسلمين والنصارى واليهود؛ فأصبح أكثر تفاعلًا مع الناس حوله من جيران وزبائن، لكنه لم يكن أبدًا ذا تسامح ومحبة، بل تعلم من أبيه أن التاجر لا وقت عنده إلا لحب الذهب ونفسه.

كانت مربّية يوحنا الرومية تعلّمه اللغات حتى أتقن العديد منها وصار تاجرًا ناجحًا يذهب إلى بلاد الروم والشام والمغرب وحتى أفريقيا، يبيع ويشترى فيحضر المال والجواري.

بعد سبعة ليالٍ من عودة السلطان للقاهرة وتعيين يوحنا جابيًا للإسكندرية أرسل للسلطان بهدية، جارية عربية تجمع في مزاياها بين بنات العرب والعجم وأفريقيا، خليط من الجمال الحار الذي يحوز إعجاب الرجال، لها قدرة عظيمة على الغناء وضرب الآلات والرقص والغنج، والأهم أن عندها مَلَكَة الحكي وتملك الكثير من الأساطير حتى عن نفسها، تقولها مغناةً سجعًا ونثرًا وشعرًا.

أسماها من اشتراها من العريش شادية، أما هي فتحكي أنها من سلالة ملوك العرب والعجم من الأتراك العثمانيين، بل يصل نسب جد جدها إلى جلال الدين الرومي الذي كان جدًا للسلطان محمد الفاتح لأمه، وتقول: إن الجد الآخر هو السلطان الصالح إسماعيل من جاريته الحبشية التي أسموها ساحرة الملوك.

يوحنا وحده يعلم كذب ما تقول، لكنه ادَّعى صدقه وأذاعه وأشاعه حتى يصل لعلم السلطان مدى حبه وتقديره حتى في جواريه.

شادية أول امرأة استطاعَت أن تُنسِي السلطان قايتباي سنّه وعلمه واهتمامه بالصوفية التي ينتمي لها، أنسَتْه زهده حتى أنها أنجبت له فتاة رقيقة جميلة وهو مقارب للسبعين أسماها ثُريّا.

ما يُعرف عن شادية ليس بالكثير، فقد انقطع ذكرها بعد موت السلطان قايتباي في الثالثة والثمانين، وكانت الابنة ثريّا تقارب السادسة عشر، زوّجها أخوها السلطان محمد من الأمير قنصوة الغوري أحد مماليك والده؛ ليحكم سيطرته عليه ويضمن ولاءه، السلطان محمد ابن الثامنة عشرة لا يدري تقلبات الحكم وغدر المماليك، وقنصوة ابن سبعة وخمسين، أما زوجة أبيه شادية فقد حبسها في الحرملك، وقال: إنها جُنّت وتحكي أساطير عن الملوك ونسبها المزيف، ويخاف أن تثير بعض ملوك آل عثمان عليهم، ومن حينها لا يعرف أحد مصيرها.

كان الأشرف أو الناصر محمد بن قايتباي طائشًا؛ فخلعه المماليك مرة وولّوا خاله قانصوه لثلاث ليالٍ، لكنه عاد وحكم حتى ملّ منه الجِلبان والمماليك؛ لضعفه الشديد وطيشه فقتلوه، وولّوا خاله قانصوه الأشرفي باسم السلطان الظاهر.

كل ما سبق من نوائب واضطرابات لم تُطمِع قنصوة الغوري في الحكم، بل كان راضيًا بترقيه مع كل سلطان حتى نال أعلى الدرجات، عندما فرّ السلطان قانصوة الأشرفي في ملابس النساء ولم يُعرَف له مكان كان قنصوة الغوري نائب النوب ولم يحرّك ساكنًا، ولما خرج العادل طومان باي على سلطانه وصديقه الأشرف جان بلاط الذي خلع قانصوة الأشرفي واتفق مع المتمردين بالشام على خلع السلطان، انتظر الغوري حتى حدث الخلع ثم ترقّى إلى أتابك الجيوش ولم يطمع.

لم يدُرْ بخلد أحد أن يقوم يوحنا بنبش مغارات الجبل بحثًا عن كل ما يخصّ القديس سمعان الحافي، قال الناس: ما لليهودي بذلك، انتشرت الأقاويل أنه نصرانيًا وليس يهوديًا، هناك من قال إنه حفيدٌ لليهودي عشيق جدته اليهودية وليس للحافي، وعندما لم يجد يوحنّا شيئًا ذا بالٍ من أعمال الحفر يثبت به نسبه وعظيم مركزه بين العامة، قام بكتابة أوراقٍ من وحي خياله؛ فقد كان كاتبًا وخطيبًا مفوهًا غير أنه كان تاجرًا وصائغًا، أحضر بعض الأوراق وكتب أقوالًا وذكرياتٍ وأفكارًا لجده سمعان، ثم قال: إن الجد بشّر بميلادي، وأنه مذكور أن الحفيد اليهودي مبارك من الربّ، وأن روح الربّ جاءت يوحنّا في كهفه بالجبل وبشّرته بالحفيد الذي سيعيد أمجاد الرسل.

وقت أن كتب يوحنا اليهودي أقوال سمعان الحافي الجد المبارك كان أتباعه يضعون رُفات وعظام رأس ميت ضخم الجثة، أحضروها من مدافن المسلمين ليلًا في الخفاء، حضر مع يوحنّا رئيس الكنيسة وأقاموا قِداسًا لروح القديس سمعان وأغلقوا الكهف على رفاته

بالطين الذي أُوقِد عليه النار، ورسمُوا صليبًا عملاقًا على بابه، ثم قال يوحنا قولته الشهيرة: إن أقوال ونبوءات جدي ستكون أمانة في عنقي لأنشرها بين أهل مصر، ولم ينسَ يوحنا أن يقول إن جده كان متزوجًا من جدته اليهودية اعترافًا بفضل السابقين من الديانات، وأن جُلّ جلساء وأحباب الجد كانوا من المسلمين.

لم ينشر يوحنا أقوال جده المزورة، ولم يبنِ الكنيسة التي وعد بها النصارى ولا الكنيس الذي وعد به اليهود، لكنه بني سبيلًا للماء كعادة المسلمين وأسماه باسم السلطان، أخذ ماله من الكنيسة ومن فقراء المسلمين وبعض اليهود، بنَى السبيل ووهبه للسلطان وأخذ عطيته مائة ألفٍ من الدنانير الذهبية.

زار شيطان النوم يوحنّا في أحلامه بتقريظ جده، وكانت جدته تهدهده فرحة بعمله؛ فقام فزعًا من نومه وأمر بماء ليستحمّ، رآها ولأول مرة جميلة تلك الفتاة الحبشية التي باعوها له لتخدمه فوقع عليها من فوره، أنجبت له فتاة سمراء فاتنة وقع حبها في قلبه وأسماها دليلة، علّمها الشعر والتجارة ولم يزل حتى زوّجها من كبير

تجار الروم الذي سافر بها إلى صقلية ومن هناك إلى روما، عاشت دليلة مع زوجها حتى بلغَت المائة، أنجبَت فيما أنجبت بنتًا تزوجّت رجلًا شركسيًا أمه كانت من سلالة يهود الأندلس الفارّين، استقر الرجل بزوجته ابنة دليلة في سالونيكي واستمرت سلالتها حتى فتح السلطان العثماني بلاد اليونان وعاش سيدًا شركسيًا، أنجب أبناء دليلة من الحفدة الكثيرين منهم من حارب في جيش الخلافة، ومنهم من طبّب سلاطينها، ومن تاجر في أرجائها، ومنهم من حكم وملك ما تحت قدمَي الخليفة ذات يوم.

نُسَيبَة

كانت تجلس بالصف الأول قريبة من زوجة السلطان في الاحتفالات الضخمة التي صاحبت افتتاح قلعة السلطان قايتباي بالإسكندرية، الحفل الذي أنفق عليه يوحنا اليهودي من ماله الخاص؛ حتى يرضى عنه السلطان، تجلس زوجات السلطان وبعض الوصيفات والمقرّبين من عِليَة القوم بإيوان السلطان خلف كرسي العرش، سعيدة هي برؤية السلطان وكبار رجال القوم، فرّ جدُّها الكبير من الشام إلى مصر بعدما دخلها تيمور لَنك بقواته وأعمل فيها جيشه السلب والنهب واستحلّ المحارم؛ فهرب عبد الله الشامي من اللاذقية إلى مصر، كانت نُسيبة في علم الغيب هي وأبيها لمّا وصل عبدالله إلى برّ الإسكندرية، نزل من الميناء إلى موقف الجمال، ثم رحل من فوره مع القوافل إلى القاهرة.

عمل في القاهرة صانعًا للحلوى الشامية إلى أن اشتهر بعجيب صنعه؛ فأصبح محلّه مزارًا للأعيان والأمراء، ثم أصبح حلوانيًا في قصر السلطان برقوق حتى رأى زُليخة بنت حاجب السلطان، كان

الحاجب روميًا أعتقه السلطان وجعله من خاصته المقربين، أَعجَب عبد الله الشامي دلالُها وجمالها؛ فتزوجها وأنجبا من الذرية الكثير فكانت نُسيبة من أبناء الأبناء، وكانت أشبهَهُم بجدتها الرومية مع جميل شمائل جدها الشامي وأمها الشركسية.

منذ أتمّت نُسيبة العاشرة لم ينقطع خطابها عن الدار، حتى أن الشعراء كتبُوا في سحر عينيها الكثير دون أن يروها، لكنها لم تكن لتَهتَم بهم حتى وقعت عينيها على هذا المجنون الذي أغضبها كثيرًا وأضحكها أكثر، رأته يوم الحفل في قصر السلطان وهي ابنة أربعة عشر عامًا وهو ابن ثلاثين، كان ينظر إليها فاغرًا فاه كأنه رأى عجبًا أو لم يرَ نساءً من قبل، لن تعلم نُسيبة أنه قد عميَ بعدها عن كل نساء الأرض.

عندما أتمَّت نُسيبة الخامسة عشر تزوجت تاجرَ حريرٍ من أزمير، كان أبوها قد استدعاه للتحقيق في الحرائر المغشوشة التي ملأت الأسواق، لكنه وجد فيه التاجر الشريف الذي لا يسرق ولا يغش فعرض عليه ابنته، وافق الأخير دون أن يراها، ولا يُعلم هل سمع

بجمالها؟ أو لقرابة أمها الشركسية؟ أم رغبة في جاه أبيها الذي أصبح مقربًا من السلطان وكان مسئولًا عن مخزون الغلال في عموم السلطنة؟ ومن عجبٍ أن العثماني من أزمير قد حارب في صفوف قنصوة الغوري ثم طومان باي وفرّ بنُسيبة وبناتها إلى النوبة بعد دخول الجيش الإنكشاري للقاهرة، وتعليق جسد السلطان الأخير على بوابة المتولّي.

لم تُنجِب نُسيبة لزوجها الولد، وأنجبت سبع بنات لم يرِثن منها الدلال ولا الجمال، ولم يأتِ لهن ذِكر على ألسنة الناس كأنهن نسيًا منسيًا.

القَاضِي المبارك

قاضي رشيد المبارك من ذرية علم الدين قاضى قضاة الخلافة العباسية، حبيب جده المدفون في بغداد الذي زار أمه مع حملها به وبشّرها بقاضٍ عادل من ذريته، لكنه بلا حظٍ في الدنيا فأسمته "محمد علي"، شق اسمه الأول تيمنًا باسم المصطفى الحبيب والشق الثاني لجده ابن عم النبي الإمام علي بن أبى طالب، وجده الإمام بالمحروسة علي زين العابدين، كما أصبح مناصفة بين جده لأمه الوارث للتشيع وعشق آل البيت من أجداده قضاة الفاطميين، وبين عمومته قضاة المحروسة وورثة قاضي قضاة الخليفة العباسي.

لما وُلد القاضي محمد علي حاز كنية المبارك؛ فقد وُلد في ليلة النصف من شعبان، وبعد مولده بيومين أتى البشير بعفو الخليفة العباسي عن جده لأمه بعدما وصل إليه خبر تشيعه، وكاد أن يُعدم لولا وساطة أبيه ورهطه قضاة دولة الخلافة، مما سمّي بوشاية الكاذبين في حق القاضي الصالح، فكان لمولده فرحتان.

درس محمد علي العلوم الشرعية على يد كبار العلماء، وتعلّم القضاء على يد أبيه وأعمامه الفطاحل، دار بين المديريات يرى ويتعلم ويشارك في الأحكام حتى بلغ العشرين عندما ولّاه السلطان جقمق قضاء رشيد بعدما صعد أبوه القاضي عبد الواحد وقبّل الأرض بين يدي السلطان مهنئًا بالقضاء على تمرد الأمير قرقماش الشعباني وإعدامه.

أرادت أمه أن تزوجه قبل السفر؛ ليكون في مأمن من شرور الدنيا وفتنة النساء، لكنه أبى إلا أن يختار بعينيه وقلبه، كان يأمل أن يرى في رشيد من تملِكُ عليه عقله قبل قلبه، لكن من السنين مرّت عشرة ولم يجد من تصلح له؛ فآنس إلى جواريه ملك يمينه، كان فحلًا لا يقنع بالتبديل والتغيير ما بين بيع وشراء فاقتنى الفارسية والرومية والشركسية والحبشية، حتى أنه استطاع بالمال الكثير أن يقتني واحدة من الأراضي المكتشفة البعيدة.

أصبح المبارك عبيطًا يوم أن وجد نفسه منقسمًا بين كرهه الدفين لزوج نُسيبة الشامية، والأمير طط ابن عم السلطان وأمير رشيد

الذي أرسل له مكتوبًا للحُكم على مراد شركس التاجر ومصادرة ماله وبيوته وتجارته، قضَى ليلته دون نوم وللمرة الأولى منذ حرّم على نفسه النساء بعد عشقه نسيبة، تأخذه الحيرة بين الانتقام من رجل أخذ روحه دون أن يعلم، وبين حقٍ أقسم عليه أمام الله وكان مشهورًا بالصرامة والعدل، فهل يضعف اليوم فيقضي بما يُرضِي الأمير ويبرد غلّ قلبه؟ أم يحكم بما أنزل الله لعدو قلبه اللدود؟

في الصباح ألقَى نفسه في البِركة التي يملأها له العبيد من ماء البحر، ثم اغتسل وارتدى أبهَى حُلَلِه وتعطر بالمسك والعنبر ودهن بالزيوت، ثم أمر أن يخرج في كامل حرسه وطيلسانه، وأن تسرج الخيول بسروج الفضة الموشاة بالذهب.

وصل دار القضاء باكرًا والناس تجمهرت؛ لترى قضية العام، فجلس على كرسي القضاء موليًا ظهره للجميع، ثم خلع نعلَيه ووضعهما فوق رأسه وأمر بإدخال بغلته المسرّجة بالفضة والذهب إلى قاعة القضاء، وقف جوارها يهامسها وسط انبهار الخلق، ثم أصدر حكمه العجيب

بانسحابه من القضاء تبعًا لأوامر سيده الجن المغربي الساكن في جوف البغلة.

أغلق القاضي المبارك داره، وباع كل جواريه وعبيده، جمع ماله وفرق نصفه على الفقراء، ثم ارتقَى بغلته الشهباء متوجهًا إلى القاهرة؛ ليقيم في بيت جده بجوار قبة الملك الصالح عند باب النصر.

في طريقه إلى القاهرة أغرَى رجال الأمير ططر الأولاد برشق القاضي محمد علي بالحجارة والجري خلفه قائلين: العبيط أهه، العبيط أهه.

القَاضِي العبيط

لا يذكر العبيط أنه أغلق عينيه كما أغلقها على ثغر نُسيبة الشامية وابتسامة عينيها، فلا يَعلم هل فتح عينيه بعد إغلاقٍ؟ أم أصبح من العميان؟!

كان الزحام شديدًا في قاعة الحفل ما بين واقف وراقصٍ ومنحنٍ لمولانا السلطان قايتباي، الجميع يهنئ ويقبّل الأرض بين يدي السلطان، وبعدها يحيّون السادة الأشراف وهو منهم، فلا يجلس أحد وهم واقفون.

كان مبتسمًا تدور عينيه على صنوف الطعام والجواري حتى وقع بصره عليها، أحسّ كمن يُغشَى عليه من الوَجْد، كانت السماء تمطر وترعد والجميع يشعرون برجفة البرد إلا هو محمر العينين والوجه، يرتعش كالمحموم وعينيه لا تسقط عنها، رأته نُسَيبة وبفطرة المرأة عرفت ما به من عشق؛ زمّت شفتيها وأشاحت برأسها فبدت سلاسل الذهب من تحت الخمار المعقود دون إحكام، لم يدْرِ كم مر من الوقت، لكنه لم يجرؤ على رفع عينيه عنها.

في منتصف الحفل أرسلَت له جاريتها الحبشية زينب تخبره أن سيدتها تقول له: أيًا من كنت فارفع عينيك عني، أم إنك ترى العجب؟ أم تراك لم ترَ نساءً من قبل؟ آمرك الحشمة يا هذا فتأدب في حضرة النساء! لم يرد بل ازداد تحديقًا بها، وكلّما مرّ الوقت وشارف الحفل على النهاية، وهو لا يعلم متى سيراها ثانية، تعظم رجفته ويزداد تحديقه.

بعد انتهاء الاحتفالات ورحيل السلطان لم يقوَ على القيام؛ فظنه الناس مخمورًا لا يقوى على الحركة، رفعه العبيد فوضعوه داخل هودج الجاريات محمولًا إلى رشيد، ظلّ محمومًا يهلوس بأسماء النساء جميعًا عسى أن يكون اسمها بينهن، ويوم أتَته جارية باسمها ونسبها قام مسرعًا إلى الحمّام، أعتق الجارية من فرحته بعد أن نظّفَت جسده من أدران المرض ثم ركب فرسه ولم ينزل عنه إلا على باب أبيها، وقف تحت مشربيتها لكنه جَبُن أن يطرق الباب ورحل، بعد ليلتين وصل لمسامعه الخبر الشؤم بزواجها من ذلك التاجر الأزميري؛

فانطلق يناجيها في ردهات الدار:

قل لنُسيبةَ في الخمارِ الأزرقِ

استحَت الشمس من نور وجهك؛ فلم تشرُق

عاش القاضي محمد العبيط في حارة الخوانكي بالجمالية ما تبقّى من حياته بالمال الذي اكتسبه من السلطان قايتباي وقت اعتذاره عن القضاء مع ما ورث من أبويه محتفظًا بجارية وحيدة أعتقها وزوّجها بابن سائس خيل الدار، فملأوا داره بالعيال الذين ينادونه بأبينا، وعاشت نُسيبة فى قصرها الفاخر القريب من مدفن السيدة نفيسة، اهتمّت بالبساتين والزروع ناسية أمر ذلك الرجل المجنون الذي كانت لا تعرف له اسمًا، فأسمته أبو العينين. كان يأتِيها بالمنام عندما تلمّ بها المصائب في هيئة ابن آوى يأكل صغارها؛ فتقوم لتستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ومن ذلك المفتون.

كان العبيط يرتدي ثيابه كل صباح، يبدأ جولته بقبّة الملك الصالح يقرأ فيها الفاتحة، ويتجه بعدها إلى بيت نُسيبة فيرى أبوها عائدًا من صلاة الفجر، ويجلس في خان الشربَتْلي؛ عسى أن تزور أباها، يدور بالحواري والشوارع باحثًا عنها، لكن كانت كالعطر الذي يهرب عند فتح القنينة فلا تراه ولا يبقى إلا شَذاه، لم يمر من الوقت الكثير

حتى وجدها في السوق؛ فاقترب ورآها ولمحته، أشاحَت عنه بوجهها لكنه لم يهتم، اقترب خطوة ثم أُغشيَ عليه، عندما أفاق وجد في طيّات ملابسه مكتوبًا تقول فيه: إليكَ عني يا هذا؛ فأنا لن أكون لك أيها العبيط.

أُغشيَ عليه ثانيةً، لكنه بقي عمرًا حتى مماته وقت دخول جيوش العثمانيين مصر وهو على أعتاب السبعين يقبّل مكتوبها، ويشتمّ عطره الذي راح إلا من أنفه ويمحص خط يدها، لا يعلم العبيط أن المكتوب بيد جاريتها الغزاوية، ولن يعلم أنها تعيش على مقربة منه بأطراف المدينة في قصر منيف محاط بالبساتين جوار مدفن السيدة نفيسة وقلعة الجبل.

فلا تُخبرْهُم بموضع الرمح من جسدك

ولا تُرِهِم دمَكَ النازف

وإن متَّ فلتَمُتَ دفعة واحدة

لم يكد طومان باي نائب السلطنة يفتح عيونه ويستمتع بدغدغة الجاريات لأكتافه ورقبته وقدميه وساعديه حتى انفتح الباب دون استئذان، هو يعلم تمام العلم أنه ما من أحد يجرؤ على تلك الفعلة إلا عمه السلطان الأشرف قنصوة الغوري، ذلك الثعلب العجوز الذي كان يبكي يوم ولّاه المماليك السلطنة عنوة؛ لأنه أكبرهم وهو يرفض حتى حملوه حملًا، أجلسوه على العرش فأظهر حنكته بأن سيطر على مقاليد الحكم سريعًا وهم يظنونه عجوزًا غافلًا، فكان ثعلبًا ماكرًا حكم خمسة عشر عامًا، هو الآن يجهز العرش لابن أخيه الأمير المدلل.

وجه السلطان يشِي بما يخاف منه طومان باي الجركَسي الأصل لطيف المحيا، شبيه عمه في شبابه، وقد صدق حدسُه أن أصدقاء الأمس قد طمعوا في الخلافة، هذا سليم الأول مترصدًا لهم، وها هو عمه يدخل متوترًا ويطرد كل الجاريات والغلمان ويغلق الأبواب دونه وابن أخيه، يمد يده لطومان باي ويأخذ العهد بصون الأمانة

بدمِه وماله، وألا يقع ضحيّة الخيانة مثلما وقع هو في شباك خيانة خايِر بِك ويونس القاضي.

طومان باي يتعجب أن السلطان عمه سيأخذ الخونة في جيشه إلى مرج دابق؛ فيخبره السلطان أنه إن طردهما الآن فستنقلب عليه المماليك ويصبح بين شقَّي الرحَى، المماليك في مصر والعدوّ على أطراف الشام، والخليفة كما يعرفون لا حول له ولا قوة، وابنته أسيرة لدى بني عثمان.

قبل خروج قنصوة الغوري دار على الأبواب وتأكد من انفراده بابن أخيه ثم أخرج أوراقًا مختومة بختم الملك الظاهر بيبرس، قال لطومان: إنها إرث الملوك من بعد بيبرس يسلمها أحدهم لمن يظنّه تاليه، لم يجرؤ أحد على فتحها ومعرفة ما تحويه؛ فكل من قصّ حكاية تلك الأوراق وقت كتابتها قال: إن ما بها عسير، حِملٌ لا يقوى عليه أحد، وقالوا: إن الملك الظاهر أملَاها لكاتبه وهو على فراش الموت ثم ختمها بخاتمه وأمر بقطع لسان الكاتب قبل قتله وتمزيق جثته ونثرها على أطراف المحروسة جِيَفٌ تأكلها الذئاب، ومن يومها لم

يجرؤ أحد علي معرفة ما تحويه تلك الأوراق الملعونة، بل انتشرت الأقاويل أن من سيفتحها لن يجد قبرًا يؤويه وستأكل حشرة الأرض وجهه.

خرج السلطان قنصوَة من غرفة الأمير وتوجّه على رأس جيشه إلى بر الشام؛ فقتله جيش سليم الأول بعد خيانة القاضي يونس وخايِر بِك وانسحاب قواتهما وانضمامهم إلى معسكر آل عثمان، ولم يُستدلّ على مدفنه إن كان قد دُفن، أصبح قبره الذي أعده بالسوق التي أنشأها للتجارة والمواجه لمسجده على مدخل السوق فارغًا من جسده الضائع.

تواترت الأنباء عن تقدم الجيش الإنكشاري العثماني إلى المحروسة، غُلّقَت الأبواب وعمّت الفوضى وانتشرت السرقات، حاول بعض المماليك الموجودين بالمحروسة السيطرة على زمام الأمور فلم ينتظروا تأكيد أخبار موت السلطان، رفعوا طومان باي على العرش وناصره الخليفة العباسي؛ عسَى أن يسترد ابنته السليبة لدى جيوش سليم الأول، أخذ طومان باي من المماليك قَسَمًا بالعهد على المصحف أن لا يخونوا؛ فتم له ما أراد، تجهّز ولملم شتات جنده الفارين من مرج دابق، وخرج معه بعض العامة بسيوفهم والْتقَى الجيشان بصحراء الريدانية قريبًا من باب زويلة، كانت معركة حاسمة قُضي فيها على الخلافة العباسية وعلى دولة المماليك، وحلت محلهما الخلافة العثمانية.

هرب طومان باي وحارب وجاهد كثيرًا في الجيزة، وفي بولاق والفسطاط، حتى أن المساجد كانت تدعوا باسمه في الجمعة التي تلَت بعد أن كانت تدعو للسلطان سليم، لكن مدافع وبنادق الجيش

الإنكشاري كانت صاحبة القول الفصل في نهاية المطاف، ووشَى به أعرابيٌ خبأه في البحيرة فقُبض عليه، وسيق إلى باب زويلة محاطًا بالحراس المدجّجِين بالسلاح.

وقف طومان باي تحت الحبل المدلّى من الباب فنادَى على المصريين ثلاثًا بالدعاء له وقراءة الفاتحة، ثم صعد بنفسه إلى موضع الحبل ومات بلا مقاومة.

استقر المُلكِ للسلطان سليم الأول ابن السلطان بايزيد الثاني وزار كل الأماكن المقدسة بالمحروسة، وحضر طلعة المحمل وإرسال كسوة الكعبة التي تتحرك من الخليج المصري إلى مكة المكرمة، وأمر بزيادة العطايا للفقراء في موسم الحج، وحضَر شريف مكة وحاكمها إلى المحروسة فسلم مفاتيح الكعبة للسلطان سليم اعترافًا بسلطانه على الأراضي المقدسة التي لا ينادَى للخليفة بدونها.

كان جسد طومان باي معلقًا على باب زويلة والمساجد تدعوا للسلطان سليم خليفة محمد الفاتح سلطانًا وخليفةً وأميرًا للمؤمنين، وزاد خطيب المسجد الأموي لقب حاكم الحرمين

الشريفين، لكن سليم الأول اختار لنفسه اسم خادم الحرمين الشريفين، وأمر السلطان قبل عودته إلى القسطنطينية بدفن جسد طومان باي في المدفن الذي كان قنصوة الغوري قد سبق وأعده لنفسه على مدخل السوق، لم ينسَ السلطان سليم أن يأخذ معيّته الشخصية الأوراق المختومة بخاتم الملك الظاهر، وإن لم يجرؤ على فتحها وقراءة ما فيها، ومِن على فراش الموت أوصَى سليم بالصندوق لابنه سليمان القانوني الخليفة الجديد.

نوحوا على مصرَ لأمرٍ قد جرى

من حادثٍ عمّت مصيبتُه الورَى

انطلق المُنادون وخلفهم العامة في الطرقات والأزقة يبكون وينتحبون، ينعون موت سلطانهم تحت سنابك خيل العثمانيين حلفاء الأمس وأعداء اليوم.

انتقم سليم الأول لخذلان السلطان قايتباي لأبيه بايزيد الذي مات كمدًا وجوعًا في سجن تيمور لَنك، قتل الأشرف قنصوة الغوري سلطان المسلمين تحت سنابِك الخيل وتركه فريسة للضواري والضباع، لم يَسمح لهم حتى أن يحملوه فيدفن في مسجده، وسيقتل وريثه ويقضي على دولتهم التي خانت السلطان بايزيد.

خايِر بك والغزالي الذين خانوا السلطان وفي وسط المعمعة انضمّوا للعسكر العثماني وتركوه وحيدًا، سيدخلون القاهرة قريبًا من باب النصر في معيّة السلطان سليم ونعيمه ورضاه بعد أن أصبحوا من رجاله، هم وكل الأمراء الخونة.

كانت النسوة تولِولْن وتشقِّقْن الجيوب والمناطق جزعًا على السلطان المغدور، الأمير طومان باي يجري في طرقات القصر لا يدري ما

يفعل في تلك الفاجعة، هو الفتَى المرفّه ابن أخ السلطان لم يأخذ الدنيا على محمل الجد يومًا، وها هو يرى الدنيا تدير ظهرها له ولعمه.

كان السلطان قنصوة لا يفكر إلا في العودة والتجهيز لجولة أخرى مع سليم الأول الخائن، هو لم يخُن سليمَ يوم الْتقَى جيشه بالصفويين والشاه إسماعيل رغم علمه بخيانة هذا الشاه، ورغم جنوده التي كانت تُغِير على حدود دولته ثم يعتذر عن الجنود ويرسل الهدايا، حتى أن قنصوة أصبح لا يأخذه مأخذ الجد.

كان قنصوة يحشرج ويرى بعينيه النهاية، لكن ذلك لم يُخرِج من قلبِه بُغضَ ابن ماجد الذي أدخَل البرتغال أراضينا، وعلَّمهم طريق رأس الرجاء الصالح الذي استغلوه؛ لإفقار الدولة وقطع الطرق عليها، أفقرَ الناس، ثم أجبرَه على فرض الضريبة تلو الأخرى، البرتغال الذين أغارُوا علينا وأرادوا تأليب أوروبا تحت مسمى الحملات الصليبية الجديدة التي هدفها تدمير الدولة والوصول إلى مكة والمدينة المقدّسَتَين، يأتي الخائن ابن ماجد ويريهم الطريق حول أفريقيا، حمدًا لله طهّرنا مجال البحر منهم وأخرجناهم بعيدًا عن باب

المندب، دمعت عينا قنصوه وهو يسقط عن فرسه علي فراق سَكينة وليدته من الفاتنة الصغيرة ذات الحيل الطفولية، كان عمره سبعين ولكن قلبه مع ثريّا، كان كطفل في العاشرة، نزلَتْ دموعه وهو يراها سبيّة عند الخائن سليم ملك الترك، لحظات مرَّت بها حياته وأحداثها أمام ناظريه، كان صبيًا يافعًا بِيْعَ للملك الأشرف قايتباي إلى أن تسلطَنَ وجعل ابن أخيه وليًا لعهده، طومان باي سَمِي سلفُه السلطان العادل طومان باي، هل يستطيعُ ذلك الشاب المرفّه مواجهة غدر المماليك، وحماية نفسِه والصغيرة سكينة؟

ضربةٌ أخيرة من حافر حصان في منتصف الجبهة فجرّت بؤبؤ العين وانطفأ نورها، ها هو قنصوة يجري بسمنتِه وترهلّات لحمه في طرقات البرج الأحمر بالقلعة باكيًا وفارًا من المماليك لا يريد تنصيبه، حملوه ووضعوه على العرش وضعًا، يرفض ويضرب بيديه وقدميه فأنّى لذي الستين أن يكون سلطانًا وهم يصرّون، يُقسِمون بالعهد تلو العهد حتى رضِيَ على أن يقسِموا على كتاب الله صغيرُهم وكبيرهم ألا يقتلوه إن خلعوه، دهساتٌ ولطماتٌ من القوائم الخلفية

لفرس آل عثمان كسرَت عظام رأسه وأسقطته غارقًا في دماء سالت، وأحلام ضاعت.

لم يجد قنصوة قبل أن يهلك الوقت أو الجهد ليفكر في تحفِه الفنية التي أمر ببنائها، ولا في خان الخليلي الجديد الذي بناه، لن يعرف شيئًا عن سِكِينة ولا عن أمها ثريّا، لن يرى المنارة الجديدة للجامع الأزهر الشريف بعد اكتمالها، لن يعلم أن وثيقته الهامة إرثه من بيبرس وبخط يده، لن توضع داخل علبته الجديدة والمرصّعة بالصدف، بل ستكون داخل صندوق من الزجاج الملون والخشب المعشّق فى صوان محكم الغلق بمخدع الخليفة الجديد في القسطنطينية.

يا صاحُ لو أبصرْتَ بابَ زُوَيلةٍ

لعلمْتَ قَدرَ محلِّهِ بُنْيَانَا

لو أنّ فِرْعَونًا رآهُ لَمْ يُرِدْ

صَرْحًا وَلَا أوصَى بِهِ هَامَانَا

ما دار بخُلد جوهر الصقلي وهو يقبَل انضمام قبيلة زويلة من البربر في منطقة فزان إلى قواته المحاربة، وحين أنشأ أبواب القاهرة الثمانية وأطلق اسم القبيلة على أحد أبوابها الجنوبية أن ذلك الباب سيكون سبب ذُعرِ المصريين منذ تعليق المرأة المحتالة "الخناقة" التي كانت تخنق النساء والأطفال وتسرق ما معهم على البوابة.

منذ أمر السلطان قطز بقطع رؤوس رُسلِ هولاكو وتعليقها على البوابة حتى سَرَى بها الدود، أصبح التعليق على باب زويلة أو بوابة المتولّي سُنّةً لعقاب المارقين والأعداء وكل من تسوّل نفسه مخالفة السلطان ومماليكه.

الهلع تحوّل بحكم العادة إلى تقديس، غيّروا اسم البوابة ونسبوها إلى المتولّي المسئول عن الضرائب والمكوس الواردة إلى القاهرة من باب زويلة، قالوا: إن روحَه تطوف بالمكان، يربطُون لفافات الأدعية والأسنان المخلّعة إلى الفراغات التي في خشب الضلفة الشرقية

للباب الضخم؛ لتجلب البركة والرزق، وترفع الظلم والغم، وتداوي المرضَى بشفاعة المتولي.

لم يعلم جوهر باني القاهرة بأسوارها وأبوابها، ولم يدُرْ بخلد بدر الدين الجمالي الذي أعاد بناء الأسوار بالحجارة بدلًا من الطوب اللبن، ولم يطُفْ بخيال الملك المؤيّد أبو النصر شيخ المحمودي الشركسي صاحب المسجد الشهير المقامة منارتَيهِ فوق أبراج البوابة أن العثمانيين سيعلّقون، على نفس الباب، رأس المملوك الأخير في الخلافة العباسية والدولة المملوكية.

نبكي على مصرَ وسكانها قد خربَت أركانُها العامِرة

وأصبَحَتْ بالذُّل مقهورةً من بعد ما كانت هي القاهرة

تجمهر الناس على البوابة يدعون الله ألا يروا سلطانهم مقيّدًا في الأغلال، وأن تكون أقوال الخونة المارقين مجرد خدعة؛ لتهدأ ثائرة الناس على سليم الأول ومن فتحوا له الأبواب ليدخل القاهرة ظافرًا منتصرًا.

دقّت الطبول وظهر المنادي، ثم ظهر طومان باي محاطًا بأربعمائة جندي إنكشاريّ عثماني، مرّوا بالطرقات وعلى أبواب الحارات؛ ليرى كل الناس ألا فائدة تُرجَى من المقاومة، فها هو سلطانكم أسيرًا مكبلًا يساق إلى الحبل المدلّى من البوابة.

رأى طومان باي الحبل فعلم أنه مشنوق اليوم، وقف منتصبًا لكنه لم يستطع أن يرفع يديه المكبلتين للدعاء أو للإشارة، دعا للناس ثم قال لهم ثلاثًا: اقرأوا لي الفاتحة، أراد قلبه أن يحمّسَهم لمقاتلة المحتل، لكنه خاف عليهم من ضعفهم وبنادق العثمانية، خطا سريعًا إلى الحبل المدلّى فقرأ الفاتحة، وقال للجلاد: أتمّ عملَك، ثم أغمض

عينيه، ربطوا الحبال حول عنقه وجذبوه عاليًا، انقطَع الحبل ثلاثًا وسط التهليل وزغاريد النساء، في المرة الرابعة نفذ أمر الله.

الملك الأشرف أبو النصر طومان باي آخر سلاطين المماليك الذي جاهد نفسه ورفاهية حياته، ورفض أن يخون كما خان الغزالي بِك الذي ذهب للقاء الجيش العثماني في العريش وبدلًا من أن يلاقِيهم انضم إليهم، ولم يفعل كغيره من أمراء المماليك الذين رفضوا الخروج لملاقاة جيوش سليم في الصالحية وعسكروا في الريدانية رافضين الانصياع لخطة سلطانهم، كانوا يبيتون في قصورهم بالقاهرة ويخرجون للمعسكرات صباحًا، طومان باي الذي فرّ من سليم الأول بعد الخيانة ورفض الهزيمة؛ فهجم في عدة غزوات على مقرات العثمانيين في روض الفرج، ووِردان وغيرهما، كاد أن يقتُل سليمَ الأول نفسه، ضرب التركُ القاهرة بالبنادق من فوق المآذن؛ فآثر الانسحاب حتى لا يكثر الموت بين الناس، ولكنه لم يكلّ في الدفاع والناس معه بعد خيانة أمراء المماليك، حتى أنه في إحدى

الجُمَع عادت المساجد لتدعو باسمه في الصلاة؛ لاعتقادهم باندحار جند سليم الأول.

قتَل طومان باي سنان باشا الصدر الأعظم في الريدانية وهو ما أثار حفيظة سليم الأول، لكنه جَبُن عن دخول القاهرة لثلاث ليالٍ بعد انتهاء المعركة، وقرّر إعدام طومان باي فور القبض عليه، وتركِ جثّته لثلاثة أيام عبرة لمن يعتبر.

احتفى سليم الأول بالشيخ الأعرابي الذي استقبل السلطان طومان باي ثم وشَى به، لكن بعدها سجنه وعذبه ثم قتله.

بموت طومان باي أصبحَت مصر ولاية عثمانية، ونُقلت كل تحف ونفائس دولة المماليك إلى الأستانة، كان صندوق الملك الظاهر من ضمن ما حرص سليم على نقله إلى الأستانة.

أصبح الصندوق المنسِيّ ومحتواه المكتوب سرًا بيد السلطان بيبرس البندقداري في حوزة الخليفة العثماني وكأن لعنته إرثًا على كل خليفة أو سلطان.

هتف الناس باسم الخليفة الجديد السلطان سليم الأول، وهتفوا باسم الوالي تابع الخليفة المعظم وعبده الأمين.

صرخةَ بيبرس البندقداري

تجولَت أوراق السلطان بيبرس البندقداري ككلّ كنوز الخلافة ومتعلقات النبيّ الخاتم في طرق ودروب وسراديب الخلافة، حتى استقرّت في صندوق خشبي مطعم بالزجاج الملون داخل قصر توب كابي، ومعها جميع كنوز الخلافة الإسلامية وما نجا مع الفارين من الأندلس بعد سقوطها، وقد بقيَت صرخة بيبرس داخل مكتوبِه حبيسة الصندوق، حتى يجيء من يحررها.

العبد الحر

اسمي محمود بن ممدود بن خوارزم شاه، وأمي هي أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه سلطان مملكة خوارزم الذي اغتاله المغول داخل أسوار قصره بعد الهزيمة، أبي هو ابن عم السلطان الذي راح شهيدًا في معاركه ضد المغول، تعلّمتُ منهما معنى الفروسية والشهامة والحق، وتعلّمت من جهاد ابنة عمي الرقّة والعشق فلم يعلق قلبي بغيرها.

عشتُ أهوالًا بين بيعٍ ورقٍ وضربٍ وحِملٍ فوق الطاقة، ما أدراكم بصبيٍ خطفوه وباعوه للقاسية قلوبهم، حتى أتيتُ مصرَ فأصبحتُ في مماليك السلطان نجم الدين أيوب، دافعتُ عن هذا البلد الذي أصبح ملاذي الأخير وقلبي مكلوم بفراق جهاد، حتى جاء اليوم الذي رأيتها بقلبي قبل أن تراها عيني في دروب القصر، عرفتها وطلبتها من الله ومن السلطانة شجر الدر التي وافقت بعد أن أمرَتنِي أن أنقل لها كل أخبار مولاي أيبك وزوجته أم نور الدين ففَعلْت، وليتَني ما فعلت؛ فقد زادَت وطلبت أن أقتلها وابنها؛ فأبيت وهددتها للمرة الأولي بأن

أشِي بسرها لمولاي، لم أعلم أنها قاتلته، ولما تيّقَنتُ كان السيف قد سبَق العزل، لكني قمت بحماية أهله ولم أرجع حتى أجلستُ المنصور نور الدين على كرسي العرش وجعلت أمه سلطانة، قضَينا علي الشيطانة شجر الدر في ليلة مقمرة؛ ليراها الناس ملقاة في الصحراء تحت القلعة تتعفن وتبلَى عقابَ خيانتها.

يقولون أنّي قد خنت صديقي بيبرس بقتل مولاه أقطاي، لكني - ويشهد الله- لم أخنه حتى وأنا أرى نظرة الغدر في عينيه، أردتُ أن أملّكه ما تحت قدمي؛ لأفرغ لصلاتي ودعائي لفاتنتي وزوجتي حبّ الرمان التي انفرط دمعي جزعًا لفراقها، أنا ما خنتُ أحدًا لكني أطعتُ أوامر سيدي والشيطانة التي تزوّجها، ويوم أن قهرتني وأذلتني وافقتُ فقط أن أجلب لها أخبار حرَملَك السلطان وزوجه أم علي، بل وخلطتُ الحق بالزائف حتى لا تعلم عنه علم اليقين.

الآن وأنا ألتفِتُ أرى صديقي ورفيق دربي بالسلاح يسابق الريح؛ ليصل إليّ ويغمد نصله اللامع بضوء المشاعل في قلبي، أبتسمُ للمسكين الذي لا يعلم ما علمته منذ رأيت عمي ووزراءه يُذبحون

أمام عيني بعد خيانة صدره الأعظم، ذلك الخائن الذي علمتُ وأنا بدمشق في أغلال العبودية أنه مات تحت سنابِكِ خيل جيش هولاكو وهو يفرّ من سجنه، فعلمتُ على صغري أن الضباع لا تأكل الظبيان فقط، لكنها تأكل بعضها أيضًا.

أنا سيف الدين قطز من قال في يوم المعمعة: وا إسلاماه، يا الله انصر عبدك قطز على التتار، أنا صاحب الخدعة والآمر بقتل خائن حِمص وخونة الشام مع كيتوبوقا قائد جيوش هولاكو.

أنا السلطان سيف الدين محمود قطز أول مملوك حرّ، وأول من حرّر العبيد وجعلهم سادة؛ فوقفوا في الميدان رافعي الرؤوس فانتصروا على التتار لعزة مصر والإسلام وعزتهم، لا ينتظرون منحة الرقيق بل غنيمة الحر، عند مقتلِي همستُ لرفيق دربي بسره المكنون ولعنة دمي المهدور.

العبيطُ يرقدُ بلا رجاء في قيامة

وقف محمد علي العبيط متكئًا على عصاه في انتظار مقدم الجند يسوقون السلطان المغدور عند باب زويلة، كانت المرة الأولى التي لم يُقَبِل فيها مكتوب نُسيبة ولم يشمّ عطرها العالق به، الخَطبُ هذه المرة ذكّره بيوم أن رآها وفقدها، وها هو يرى ويفقد سلطانًا شجاعًا يموت شابًا، ذلك الصباح لم يزُر قبة الملك الصالح كما اعتاد، ولم يجلس في مسجد السلطان قلاوون وحتى طعامًا لم يذُق.

تنوحُ النائحاتُ ويبكي الرجال، وهو يقف في ثبات القاضي مثلما كان في أوجِ مجده في رشيد يوم أن كان عادلًا لا يهابُ أحدًا، لم ينظر إلا على الحبل المدلّى فيرى فيه زوج نُسيبة تارة، وأمير رشيد تارة أخرى، وفى الثالثة سليم الأول السلطان الخائن للعهود قاتل قنصوة وهادم مُلكِ العرب.

ضربَت شمس الصباح المنعكسة من طاسات الرؤوس ودروع العسكر أشعّتها في عينيه، أصابته بإعتام في الرؤية تبدّد قليلًا عن وجه خمسيني لامرأة، لو غاب الكل عن عيونه وغفل عن كل شيء

حتى عن نفسه لعرفها، نعم إنها هي، ورب الكعبة هي، نُسيبة الشامية فاتنته، يا بركات سيدنا المتولي.

حدّق كالمعتاد في مقلتيها، لم يرَ ترهلات جسدها ولا تجاعيد عينيها، رآها ابنة الرابعة عشر تتِيهُ بجمالها، كاد أن يُغشَى عليه لولا دقات الطبول والهرج الذي يسبق مقدّم الجند مكبّلين مولانا السلطان يحملونه فوق بغل حرون، دمعَت عيناه على السلطان وعلى نُسيبة، آلمته أسنانُه على حين غرَّة حتى تقلّص لحم وجهه وانهمر الدمع من عينيه، أحسّ بالرجفة فكان تائهًا لا يدري من حوله إلا همهمات الجند، وصيحاَت الناس: الله أكبر، الله أكبر، السلطان حي لم يمُت، دارت عينيه بحثًا عنها وعن السلطان، هل رأته؟ هل عرفته؟ تتعالى التكبيرات، تدعو بحياة السلطان طومان باي قاهر الموت.

لحظات صمتٍ ثم انطلقت النواحات يبكين السلطان، وانطلق الجنود يفرّقون الناس ويمسكون زمام الأمور، بقيَ واقفًا حتى انفض الجميع من حوله، بحثَ عنها فلم يجدها ولم يجد أثرًا لشعاع الشمس المبارك، لكنه يتنفس رائحتها الزكية ويرى زوجها معلقًا في الحبل،

هامسَه قائلًا: ألم يكفِكَ كل ذلك الوقت يا تاجِرَ الشؤمِ؛ لتتركها لي وترحل؟ أنا أسامحك على كل ما فات لكن اتركها، انتبَهَ على صوت مقدّم الجند يأمره؛ ليبتعد عن الجسد المشنوق، مسح عينيه ودار حول نفسه لا يدري إلى أين.

قادته جاريّتَه السابقة وكأنه قد عميَ تجاه الدار؛ فأخبرها أنه يبغى الحمّام، ثم عاد وقال: اذهبي بي أولًا إلى قبة الملك الصالح؛ حتى أقرأ له الفاتحة، داخل القبة صلَّى ركعتين أطال سجودهما ودعا ربه أن ينجيه من ألم الفراق، وأن يغفر للسلطان طومان باي ويرزقه الجنة، ثم أكمل بدعوة على الغادر سليم الأول، وبعد أن رفع رأسه من الصلاة قال: اذهبوا بي إلى الحمّام.

داخل حمّام السلطان إينال الملاصق لمدرسة ومسجد الملك الكامل والمواجه لدرب بيت القاضي بالجمالية رقد محمد العبيط قاضي رشيد في غرفة المسلَخ، العبد الحبشي يمسد جسده ويغرقه بالعطور والبخار يتصاعد من الماء الساخن، يفتح القاضي عينيه على اتساعهما؛ فيرى من بين ثنايا البخار المتصاعد خيالًا لفتاة عسلية

العينين، بنية الشعر، يتساقط العسل من ثغرها فوق النحر الشاهق البياض، تنثني في مشيتها وتحجل لتركل الحصَى، تبتسم حتى يرى طابع الحسن على وجنتيها، تناديه بكنيته الأولى، وتقول: هلمّ إلى يا حبيبي المبارك.

يقول: أنا آتٍ يا حورية الجنة، أنا آتٍ يا نُسيبة، ويغلق عيونه ثم يذهب.

نُسيبةَ تموتَ بعيدًا

لم يمهلِ القدر نُسيبة الفسَحة من الوقت حتى تعتاد حياة المنفى الذي اختاره زوجها لهم، فقد أصابها الوهن بعد عناء السفر والابتعاد عن البيت والملَاذ، والخوف من عيون سليم الأول الذي فرض مكافأة لكل من يدل على الخونة، وأولهم تاجر الحرير من آل عثمان الذي خان سلطانه وحارب في صفوف طومان باي المشنوق.

ليلة الجمعة اغتسَلَتْ بماء الورد ونامت، أتاها العبيط بالمنام يلبس قُفْطانًا من حرير الصين وعمامة خضراء، كان ثغرُه باسمًا، ومقلتُه شديدة السواد ممتلئة ببريق الفرحة، كان يقترب كأنه يطير، وكزَتهُ بعصاها في خصره وانطلقت تعدو حتى انقطع منها النفس وهي تنادي على أبيها: لقد رأيتُه، رأيت الشيطان؛ فأعيذوني منه.

في الصباح عاد زوجها من الحَضْرة ومجلس الذكر الذي اعتاد عليه منذ ترك القاهرة؛ فوجدها لا تتحرك وعلى شباكها يمامتين بيضاوين، أغمضَ عينيها ونادى من يغسّلها ويكفَنها لتدفن في الأرض الغريبة.

لا تَظُنَّ نفسَكَ فاعلًا دون الباقين

لعَبت الخمر برأسه فقام ودار ورقص منتشيًا مع الراقصات، اليوم يكتمل العام الأول لرحيل آخر ورثة آل عثمان بعدما أقنع الشعب بجمهورية الخلافة، ثم اجتهد حتى تخلص من الجميع وطرَد عبد المجيد الثاني آخر الخلفاء؛ فأصبح الطريق ممهدًا لفرض أفكاره؛ لتغيير الذوق والفكر والدين.

وقف يستنشق الهواء من شرقة قصر توب كابي، ألقى نظرة على إستانبول، نظر على الشوارع والإعلانات الملوّنة وأسماء الشوارع تنطق بالحروف الجديدة بدلًا من العربية.

هو سلطان إستانبول الجديد وأمير المؤمنين خليفتهم ودنياهم، كل شيء يتمّ كما كان يخطط له والحفل للصباح، أصبحَت تركيا ميدانًا لتجاربه وقناعاته، بل ونزواته؛ فهو الآن أتاتورك أبو جميع الأتراك ولا يعصي الابن أبيه بل يخلّده.

قضَى على كل المنغصات فترك أذربيجان للاتحاد السوفيتي، وعادت مسقط رأسه سالونيكي لليونان، والقدس ومصر والشام في حوزة

الإنجليز والفرنساوية، ارتاح من مشاكل تلك المناطق الجاهلة الفقيرة.

لا معارضة ولا دين ولا عِرقِيّات، بل الكل في واحد والواحد هو أتاتورك أب الكل.

وقف بمساعدة حراسه، وقال: من الغدِ أنقرة عاصمة تركيا الجديدة، ثم قهقه عاليًا وجلس، يصفق الجميع.

لا ينغّص عليه حياته الآن إلا لطيفة أوشاكي التي تريد الطلاق، هي بالنسبة له مرحلة وانقضَت، وأبوها الثري أصبح لا شيء بعدما أُعلن تنصيب أتاتورك رئيسًا لتركيا، لكنها تعلم الكثير، بالطبع لن تجرؤ وإلّا، لكن هل يؤتمن النساء على الأسرار، لا يأمنَهُن إلا الغافل أو الفاجر.

طلب كأسًا من النبيذ المعتّق وجلس جلسة السلاطين، قال: يومًا ما جلس هنا الفاتح والآن يجلس القافل الذي يقفل كل أبواب الجهل والخرافة، نادى في طلب كنوز قصر السلطان ثم أمر الجميع

بالانصراف، وهمس في أذن الخازن الذي هرول ثم عاد بصندوق خشبي مطعم بالزجاج صدأَت أقفاله.

انطلق الآذان من المسجد المجاور، قال للخازن: ألا ترى أن هذا البدويّ قد أصبح شهيرًا ينادون على اسمه كل يوم قبل الصلوات؟!

صمت قليلًا، ثم أمر الخازن بفتح الصندوق والانصراف، وأكّد عليه بإعلان منع الآذان في المساجد، وترجمة القرآن للغة التركية بالحروف الجديدة، ثم قال: لتهدموا منارة هذا الجامع المجاور.

فتح الخازن الأقفال وقد تكسّرَت الحلقات الحديدية الممسكة بالقفل وتهشمت معها أجزاء من خشب الصندوق وزجاجه، أمره بإلقاء الصندوق في المدفأة قبل الخروج، وإحكام غلق الأبواب.

مصطفى كمال أتاتورك ابن علي رضا أفندي جالس الآن على أريكة السلطان سليم الأول وبيده أوراق السلطان الظاهر بيبرس البندقداري التي سلمها يوم وفاته إلى قائد الخاصكية ميمون الأبله، الأوراق التي أحضرها السلطان سليم الأول إلى إسلامبول ووضعها إلى جوار كل تُحَف وجواهر وغنائم انتصاره في مصر والشام.

أراد أتاتورك أن يقرأ الوصية، وفكّر إن أعجبته أن ينشرها بين الناس، لكن الخوف من حنين الناس لحروف تلك اللغة، وتأثّرهم بتلك العصور الهمجية منعه من إكمال الفكرة.

فتح الخُرج الحريري؛ فأخرج منديلًا نسائيًا مخمليًا مبقعًا بدمٍ قديمٍ، أطراف المنديل متآكلة ومنتصفه مُلِئ بالثقوب، ثم ورقةً مطويةً وجدها كالمنديل قد تآكلت واهترأت بفعل النمل الأحمر واختفت منها كل الكلمات، اللّهُمَّ إلا كلمة... الضباع.

تفرَّقَتْ غَنَمِي يومًا فقُلتُ لها

يا ربِّ سلِّطْ عليها الذئْبَ والضَّبعْ

الضبع من الثديّات التي تلِد وتُرضِع، مفترسٌ لا يخرج من مكمنه إلا ليلًا، يبحث عن طعامه في عشيرة، ويعيش على أكل الجيفة وبقايا صيد الحيوان، رقبتُه قصيرة قوية، وصوتُه ينشر الخوف بالقلوب؛ لذا يسمون صوته عويلًا.

الضبع من الحيوانات الأَكُولة النهِمَة التي لا تهاب السباع، وإن لم يجِد ما يأكله أكل جيفة السبع والضبع من بني فصيلته، لكنه مُولَعٌ أكثر بلحمِ الإنسان، فإذا وجده نهشَ رقبته وشرب من دمه، ثم أكله.

يتّصف الضبع بالفسق؛ فلا يترك فريسته إلا وقد اعتلاها وفسِق بها، ثم قتلها، وشرب دمها وأكل لحمها، إلا الذئب؛ فلا يقدر الضبع عليه، وإن اجتمَعَ الضبع والذئب على فريسة لم تصَبْ بسوء، يتصارعان فيمنع كل منهما الآخر عن الانفراد بالفريسة.

يصفونَه بالعرج وهو ليس بذلك، إنما تطول قوائمه الأمامية عن الخلفية ما يعطِيه قفزة الأعرج.

لا يعمل الضبعُ إلا في جماعة، ورائحته نتِنَة لا تطاق.

خاتمة

الحقيقة أنني كنت أودّ ألا أضع قائمة بالمراجع على قلّتها، لكني تراجَعتُ حتى لا أحمل وزرَ تزييف التاريخ عامدًا أو جاهلًا، وأعلنتُ مُسبقًا أن المكتوب ليس تأريخًا، وأن أيّ تشابه مع الأحداث أو الشخوص التاريخية، قد يكون واقعًا أو محضَ خيال، فجعلتُ وِزرَ المكتوب على قارئه إذ برّأتُ نفسي، ولمن قرأ الحق أن يصدّق أو أن يكذّب بالكلية، أن يعمل عقله؛ فيجتزئ أو يقتطع، وليفهم ما يشاء؛ فهذا حق أصيل له.

أما الحقيقة فهي مِلكٌ لأصحابها فقط.

حاتم القاضي

القاهرة – السبت 25 نوفمبر 2017م

شكر

أودّ أن أشكر كل الأصدقاء الذين قرأوا النص وتحمسّوا له وشجعوني على طبعه ونشره؛ فهم أصحاب الفضل في ظهوره بمساعداتهم القيّمة بالنصيحة والتشجيع.

أولّهم مروة سمير زوجتي العزيزة، وابني الحبيب والصديق عبد الله، كما أتوجه بالشكر إلى أخي عمرو القاضي وزوجته أماني سالم وأولادهما هدى وهادي.

الشكر الخاص موصول لصديقي الكاتب الصحفي والأديب المغترب أحمد غريب على مراجعة الرواية، وعلى النصائح المستمرة والدعم والتشجيع.

كل الشكر للزميلة الكاتبة نجلاء لُطفي،والصديق الصحفي والفنان محسن رفعت، والصديق الصحفي جورج أنسي، والصديق بلال ممدوح على الجهد المبذول في نشر الرواية.

المراجع

استفاد الكاتب في سبيل استكمال بعض المعلومات بما يلي:

- "بدائع الزهور في وقائع الدهور" ابن إياس.
- "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" ابن تغري بردي.
- "الدُّرَرُ الكامنة في أعيان المائة الثامنة" ابن حجر العسقلاني.
- "عصر سلاطين المماليك" د. قاسم عبده قاسم.
- بعض أبيات للشاعر ابن نباتة المصري، وشعر ابن إياس وغيرهما.
- رواية "وا إسلاماه" علي أحمد باكثير.
- بعض صفحات من موقع ويكيبيديا.

الفهرس

مقدمة 7

إهداء 8

الابتلاء على قدر الطاقة، وإنك لمبتلًى بدمي 9

الظاهر بيبرس 23

لا تتركني فريسة الضباع 29

حَبّ الرمان 35

بائع الأمراء 43

جهاد 51

أم خليل وأم علي 55

أبو الظواهر 65

أبوك السقّا مات 73

الليل الليل يا ميمون 81

الولي الزاني 87

الملك الصالح 103

القدر لا يمهل الفاسدين، ولا الصالحين 109

من يأكل لحم أخيه لا يسلَمُ من ضباع الأرض ولو أمهلوه 121

اتفاق الهوى 137

سمعان الحافي 151

بغداد ودمشق 159

التاجرة زوجة الشاعر 171

اتفاق الجارية 181

البضاعة المزجاة 189

يوحنا في قلعة السلطان 195

نُسَيبة 207

القاضي المبارك 213

القاضي العبيط 219

صرخة بيبرس البندقداري 249

العبد الحر..... 253

العبيطُ يرقدُ بلا رجاء في قيامة 259

نُسيبة تموت بعيدًا 265

لا تظنّ نفسَكَ فاعلًا دون الباقين..... 269

خاتمة..... 278

شكر 279

المراجع 280

الفهرس..... 281

حقوق النشر والتوزيع محفوظة

ببلومانيا للنشر والتوزيع